الرواية العربية

كفر الهوى

صلاح شعير

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

شعير. صلاح
كفر الهوى : رواية / صلاح شعير. ـ ٢٠١٩
١٣٠ ص ؛ ٢٠ سم
رقم الإيداع :١١٠٥٠ / ٢٠١٩
تدمك : ٥ ـ ٩٣٦ ـ ٧٧٦ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
١. القصص العربية
أ. العنوان
ديوى : ٨١٣
رقم الإيداع : ١١٠٥٠
تصميم وإخراج : أمير شعير

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ ـ ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
Email : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإهداء

إلى أصحاب الهمم
والشباب الحالم
بالمستقبل

١-القلق

في حضن النيل بالقرب من رأس "الدلتا بمصر" ، تقع قرية "كفر الهوى"على بعد ما يقرب من ٥٢ كيلو متراً شمال القاهرة أو يزيد، المباني فيها غير منتظمة، وكل بيت يختلف عن البيت الذي يجاوره، فلا يوجد تناسق معماري، على عكس ماضيها، والذي تميزت فيه رغم بدائيتها بنظام معماري موحد، حيث كانت كل البيوت بالطوب اللبن، وأبوابها سميكة من ضلفة واحدة، وفوق السطح غرفتان من الطين، يطلقون عليها "المقاعد" وبعض الصوامع الطينية لتخزين الحبوب، وحظيرة للطيور، وأحيانا برج للحمام، فيما عدا منازل العُمد، وبعض الأعيان، فكانت من حسنها كالدرر بين النجوم.

أما الطباع فقد اختلفت هي الأخرى نحو الأسوأ، وأصبح الكثير من الناس في "كفر الهوى"يحركهم الهوى، فيتمايلون يسارًا ويمينًا كما القلائد أو الأجراس المعلقة في أعناق الأنعام، فيرفعون قدر هذا، ويخفضون منزلة ذاك حسب الهوى، وتأتي الأحداث الجديدة تمسح ما يسبقها من أحداث قديمة، وكأن شيئًا لم يكن، فلا يتعظ كثيرهم من الماضي، ولا يكترثون بالمستقبل، ويكررون في الحاضر أخطاء السابقين؛ مع اختلاف طفيف في بعض الشكل، والتفاصيل، وعادةً ما تتشابه تصرفات البشرفي القرى والنجوع في نحو أربعة آلاف قرية مصرية،فمعظم السلوكيات صارت كأنها نُسخ منسوخة كربونية طبق الأصل، شأنها في ذلك شأن الكثير من المدن.

كانت "حميدة"عجوز قرية "كفر الهوى"امرأة تتمتع بالفطنة، وقوة الحدس، وعندما تتكلم يجد المتلقي كلامها ممزوجًا بالحكمة، وخفة الظل، فلا يَمل النسوة، أو الرجال من حديثها، تارة تُداعب الأطفال، فأحبها كل الصغار

بالحي، وتارة تمازح البنات، وتنصحهم بالحفاظ على أنفسهن، حتى أصبحت أمًا لكل الفتيات من أبناء الجيران، أما النسوة فكن يلجأن إليها عند الخلاف مع أزواجهن، فتنصحهن بحسن العشير، فيستجبن، وتسدعي أزواجهن أحيانا إذا كانوا مخطئين، فتأمرهم بحسن المعاملة، فيكون رأيها بمنزلة رأي الأم الرؤوم، فلا يرفضونه، أحبها الكبير والصغير،أما هي فقد أحبت الجميع.

أما اليوم وهي تقف علي عتبة صيف عام ٢٠١٦م، فكانت تجلس بشرفة بيتها الفاخر العتيق، مغروسة في همومها، والقلق يكاد يقتلها، وتنتظربفارغ الصبر عودة ولدها"غريب"من القاهرة ، فقد ظهر الشفق الأحمر في قبة الفضاء،وعادت الطيور إلى أوكارها، وغطست بقايا قرص الشمس في السماء،وأنذرتها خيوط الظلام بنهاية النهار،وأقبل الليل البهيم، ولم يعد ولدها حتى الآن.

تذكرت أن"غريب"ولدها كان يأخذ عليها أنها شديدة الاعتقاد في كرامات بعض ساكني الأضرحة من الأموات ،وكان دائمًا ما يقول أن تلك من سمات بعض البشر،في أي مجتمع مغلق ومفتوح، فقد أصبح لكل فصيل من البشرضريحه الخاص، وكأن كل مجتمع يأبى إلّا أن يخدرنفسه، ويصنع الخرافة التي تناسبه، ورغم تقدم العلوم، برز في هذا الزمان وهم جديد يسيطرعلى العقول، فطغت الإشاعة على الحقيقة، فظهرفي عصرالتكنولوجيا،والسماوات المفتوحة الكثيرمن الأضرحة؛ بعضها فوق صفحات الإنترنت، والبعض الآخرعلى شاشات الفضائيات، وتطورتقديس الوهم،بأن تم تسويقه بأسلوب حديث.

وسط لهفة الانتظار المرير، تدور بعض أحداث الماضي في رأسها، وتتأرجح عواطفها بين أفكار متضاربة، فجأة وجدت نفسها تسترجع شريط الذكريات،وأيام الشباب، وكيف كانت تسحق بسحرها أعناق الرجال،فلكم تهافتواعليها صغارًا وكبارًا، عندما كانت بحسنها كالنورالذي يجذب الفراشات لتحترق بالنار،تارة تسحقهم بالتجاهل، وتارة تردهم خائبين إذا تقدموا لِخِطْبتها.

في الماضي وقت أن فاح أريج أنوثتها؛لم تكن ترى في هذا العالم سوى"نادر"

ابن الشيخ "همام"،الذي أفلس أبوه بعد أن شب حريق كبير في شادر الأخشاب العتيق الذي شيده بالمركز، فالتهم كل رأس ماله، فعاد بعد أن خسر ثروته إلى قريته "كفر الهوى"فقيرًا بعد رغد العيش، وعاش مع أبيه يقتاتان من قطعة أرض صغيرة لا تزيد عن فدانٍ، ومن فرط الحزن لم يكمل الشيخ عامًا حتى رحل كمدا على تبدل الحال.

ظل"نادر" وحيدًا بالقرية، كانت يده الناعمة لا تصلح للفلاحة، ضربة يده بالفأس أثناء عزيق الأرض تثير سخرية الفلاحين، فقد كان نصفه ينحني ويستقيم مع كل ضربة فأس كأنه عود من الخيزران ينتصب ثم ينثني ،فتمتلئ يداه بفقاعات مائية ،تنفجربسبب كثرة العمل، فيلقي الفأس بالأرض،ويصرخ يسب مهنة الفلاحة سبًا.فتنطلق الضحكات من المارة تهكماعليه،وكأنها موج متلاطم يطفو فوق أنهارٍ من السخرية، فيزداد "نادر" غيظًا.

كانت "حميدة"اليانعة للقطاف ابنة جاره تلازم أباها في الحقل طيلة النهار، تزرع، وتسقي،وتحصد،وترقب الفلاح الجديد بفضول شديد، فرقت لسوء حاله، وتحولت الشفقة عليه إلى حب، ثم إلى جام غضب تصبه على الساخرين منه؛ لأنهم لم يرحمواعزيزقوم ذل.

اقتربت منه تساعده، ومع الأيام جمعهما حب جارف فتزوجها، فأشعل ذلك الزواج غيرة الرجال؛ بأشد ما تكون الغيرة.

لم يبال الحبيبان بكيد الكائدين، وأفنت "حميدة"عمرها بجواره في فلاحة الأرض، وفي المنزل تدبر شؤونه، تعد الطعام، وتحلب الجاموسة، وتربي الدجاج،كانت شعلة نشاط، ولم يكدر صفوهما سوى تأخر الإنجاب، فطافت على كل العرافين، وبعد طول انتظار زارت ضريح الشيخ "يوسف الغريب"، ونذرت أن تسمي طفلها على اسمه؛ إذا أنجبت ذكرًا، وتصادف أن جاء الفرج بعد الزيارة، فجاءت أنباء الحمل السعيد ووضعت مولدها بعد تسعة أشهر من الزيارة، فأطلقت على مولودها الوحيد "غريب"

أما اليوم وبعد أن صعدت أمارات الشقاء بين تجاعيد وجهها، وطمس الزمن

معالم الجمال الذي طالما أشعل غرورها.اتكأت برأسها فوق كفيها، فلم تقو يداها على أن تحمل هذا الرأس الصغير،عندئذ شعرت كأنما تحمل جبالاً من الهم، فصرخت تُنادي على الأمل بعزم صوتها المبحوح، حتى يأتي الفرج بقدوم فلزة كبدها الغائب عن موعد الرجوع.

اشتعل خوفها عليه، فقد أفنت عمرها على تعليمه، وبعد تخرجه من كلية الزراعة سافر إلى هولندا للعمل في الإنتاج الحيواني. وعاد بعد سنوات محملاً بثمن غربته وشقائه، وبنى بيتًا كبيرًا واشترى قطعتين من الأراضي الزراعية، الأولى مساحتها فدان، وابتسم له الحظ عندما تحولت في التخطيط الجديد إلى أرض بناء، بعد شرائها بنصف عام، فأقام على مساحة ربع فدان منها مبنى كبيرًا، كنواة لمزرعة حديثة، لإنتاج الألبان، وضرب سورًا حول باقي المساحة،على أمل أن يقيم على بعضها مصنعًا للجبن مستقبلا، أما القطعة الثانية، فكانت قطعة أرض زراعية خصبة، مساحتها ثلاثة أفدنة، أقام على نصفها منحلاً حديثًا، لإنتاج العسل، وذاعت شهرته في أرجاء القاهرة بسبب جودة عسل مَنحله، فأصبح من كبار موردي العسل للفنادق السياحية الكبرى.

وبعد نجاح مشروع المنحل ألح عليه عمدة القرية"دياب النمر"بأن يشاركه في المزرعة، والتى كانت بجوار منزل العمدة مباشرة، وتقع بالشرق منه، أما الطريق المرصوف على مدخل القرية كان شمال المزرعة، ومن جهة الغرب ترعة تفصل المزرعة عن الأراضي الزراعية، وهذا التجاور هو سبب التعارف بينهما، وسعت زوجة العمدة"فاتن" تحثه على هذه الشراكة، في البداية رفض"غريب" بشدة، وقد شجعته أمه "حميدة"على ذلك الرفض، بيد أن ارتفاع تكاليف البناء والتجهيزات، وثمن المواشي؛ مع إلحاح العمدة، جعله يوافق على تلك الشراكة على مضض، وذلك على أن تكون حصة العمدة هي المواشي، ويتم تقاسم الأرباح مناصفة، مع بقاء ملكية الأرض والمباني لـ"غريب" حال فض الشراكة، وذلك حتى لا يبدد مابقي معه من مال حتى يستطيع إتمام الزوج من حبيبته.

كان "غريب"قد أنفق على حصته معظم ما عاد به من مال من هولندا، أملاً في إقامة المزرعة الحديثة على غرار مزارع أوروبا، وزودها بدوائر موسيقية،

لأنه عرف أن الدراسات قد أثبتت أن سماع المواشي للموسيقى؛ تزيد من إنتاجية الألبان.

هذا الأمر تسبب في إنفجار موجات شديدة من التهكم نالت من الفتى كما كانت تنال من أبيه بالأمس البعيد، وتصدعت هيبة العمدة فنعته الفلاحون بالجنون، وكل ما تخشاه "حميدة" أن يتحول العمدة إلى عدو لدود ينال من ولدها إذا فشل المشروع.

ما يزعجها، ويؤكد هواجسها، أن الخفير "شفيق" قررأن يسمع جاموسته الموسيقى أثناء الحليب حتى يزداد لبنها؛ كما سمع من "غريب" وهو يركب الدوائر الموسيقية بمزرعته، كان "شفيق"رجلاً سمينًا، وذو صوت جميل عرف عنه حفظه للتواشيح الدينية كعادة شبّ عليها منذ الصغر، بيد أنه حاد الطبع، وبطيء الفهم.

ذهب لأخته زوجة الشاويش "هنداوي" عازف فرقة الموسيقات العسكرية، فاستعار منها آلة نفخ نحاسية من أغلظ آلات النفخ صوتًا،على أمل أن يزداد اللبن أثناء الحليب، وكانت زوجته"شفيقة"ابنة"شفعات" حارسة ضريح الشيخ "يوسف الغريب" مثله، ودوائر الفهم لديها شبه مغلقة، كانت طويلة فارعة الطول كما الزرافة، وسمينة كما الفيل من كثرة التهام الطعام، وفي المساء، أثناء قيامها بحلب وجبة اللبن، وقف "شفيق"على باب "الزريبة"ومد آلة النفخ النحاسية بالقرب من أُذن الجاموسة، وغرس فوهتها في فمه، فسقطت بين شعر شاربه الذي يشبه في كثافته فرشة الورنيش السوداء، واستجمع قواه، وأخذ شهيقًا كأنه شفاط كهربائي، ودفع بالهواء جملة واحدة في جوف الآلة؛ فخرج صوت غليظ مُنفر كأنه القرع بالمطارق فوق النحاس؛ فقفزت الجاموسة فزعًا من فورها، كأن ثعبان قد لدغها، فرفست "شفيقة"زوجته برجلها فشجت رأسها شجًا عميقًا، فسال منها الدم بغزارة كأنه يتدفق من شلال، فنقلوها على الفورمحمولة على الأعناق، وفاقدة للوعي إلى مستشفى القرية للعلاج.

لم يكن بالمستشفى سوى عامل هزيل ترك محل عمله وجلس على مقهى

بالقرب من باب المستشفى، حاول الحضور، رفعها مع آخرين على سرير متهالك في غرفة الاستقبال الصغيرة، فسقط بها السرير مهشمًا على الأرض، فصرخ العامل حزنًا علي السرير المحطم؛ لأنه عهدته، وأخذ يتمتم بعبارات تعكس مدى حنقه على مالحق بالعهدة من دمار دون أن يلقي بالاً لحال المريضة التي تصرخ من شدة الألم، وصرخ فيهم قائلا :

العامل: الطبيب غير موجود، هيا انصرفوا بها من هنا.

صرخت فيه أمها "شفعات"توبخه بسبب خواء المستشفى من الطبيب والممرضات، والعلاج، وراحت تصب جام غضبها عليه، وانحنت علي الأرض تملأ قبضة يدها بالتراب تسد به الجرح النازف برأس ابنتها، ثم أشارت لأولادها وزوجها فحملوها، ووضعوها فوق صندوق سيارة ربع نقل من الخلف، وصعدوا حوله، وذهبوا بها إلى عيادة خاصة بالقرية المجاورة، حيث قام الطبيب بتنظيف الجرح وخياطة رأسها.

انتشر الخبر بين أهل القرية انتشار النار في الهشيم، وتداوله الشباب على مواقع التواصل الاجتماعي كمادة للسخرية والتندر، فكانت الضحكات، والنكات تنال من العمدة و"غريب" في آن واحد، وما يقلق الأم على ولدها اليوم أن العمدة"دياب النمر"رجلُ حاد المزاج، وسريع الغضب، ولا يهاب الشر، وربما يدفعه الغضب، والسخرية من المشروع إلى إلحاق الأذى بوحيدها، وهذا سبب ذعرها.

أما حميدة فقد عُرف عن ولدها "غريب" صلابة الرأي، وحب المغامرة، وشدة الذكاء، فقد ورث عنها الحكمة والجمال، وعن أبيه طيبة القلب، وحب الخير، كان يميل إلى الطول، وجسده رياضي، مفتول العضلات، وبشرته خمرية اللون كبشرة جده لأبيه، وشعره ناعم شديد السمرة، أما عيونه واسعة النيني شديدة السواد، فوق مقلة شديدة البياض، كانت نظراته كالسهام تسحر النساء، وتخترق قلوبهن كما تغوص السهام في الأجساد، وصوته ذو نبرات جميلة مميزة، فلا يمل أحدُ من سماع حديثه.

في الوقت ذاته الذي تعيش أمه في نيران القلق، كان "غريب"يجلس في غرفة الاستقبال بفندق "ماريوت" بالقاهرة ينتظر شيكًا بحساب ما تم توريده من عسل خلال الشهر للفندق، كان مهمومًا، خوفًا من تعثر تجربة المزرعة الموسيقية بالقرية، وخاصة أن الموسيقى ليست هي العامل الرئيسي في زيادة إنتاجية الألبان، فالنظام الغذائي، والرعاية البيطرية، والنظافة، ونوع السلالة هم الفيصل في تحقيق النتائج.

ما يكدر صفوه أن العمدة لن يتفهم من الناحية العلمية أن لكل تجربة ثغرات يمكن سدها لاحقًا، ومع أنه شرح كل ذلك لشريكه، بيد أن حادثة "شفيقة" قلبت الأمور رأسًا على عقب، وتحول المشروع برمته إلى مجال فسيح للسخرية القاتلة.

نظر"غريب" بقلق نحوالهاتف المحمول الذي يحمله، وفتح صفحة القرية على"الفيس بوك"، فوجدها تعج بالتعليقات الساخرة، والمشاركات ممزوجة بصور مصممة على برنامج "الفوتوشوب" وكانت الصور كالتالي:صورة للعمدة يدق الساجات، و صورة لـ"شفيق" ينفخ في الآلة النحاسية، والحمير ترقص،وصورة لـ"غريب" يقرأ النوته الموسيقية أمام الجاموس الجالس على الكراسي يعزف الموسيقي بآلة الكامنجة. أما التعليقات كانت كالتالي :

- البشر بمصر تسمع "شعبان عبد الرحيم" وجاموس العمد يسمع "بتهوفن"
- العمدة يعزف الموسيقى للمواشي، ويكتب النوته الموسيقية للبقر.
- أم "غريب" تعزف العود للدجاج لزيادة عدد البيض.
- "غريب" يحلب اللبن على واحدة ونصف.

أغلق "غريب"صفحته على"الفيس بوك"، وأخذ نفسًا عميقاً لعله يهدأ لكن دون جدوى. اكتشف أن غريمه اللدود "سيف جاد" هو من يشعل مواقع التواصل الاجتماعي بهذه الصور الساخرة، لقد كان زميله بالمدرسة، ويغار منه

أشد ما تكون الغيرة، وفي الصغر كان يتعمد المشاجرة معه دون سبب، ويحيل عليه الأطفال، بيد أن كل ذلك كان ينتهي بالفشل بعد حين.

كان"سيف جاد" رغم قصره طويل الباع في الشر، ماكر يجيد تدبير الفخاخ، ويظهر خلاف ما يبطن، وبارع في استدراج الآخر حتى يتمكن من معرفة ما في جوفه، وبعد أن حصل على دبلوم التجارة بالكاد، عينه عمه في بنك التسليف الزراعي بالوساطة.

مع بداية ظهورالدش بالقرية أدمن مشاهدته، وبعد أن تطورت وسائل الاتصالات بظهور"الفيسبوك"أصبح من رواده، وشغله الشاغل ،فقد تعلم برامج الفوتوشوب، ليصنع الصورويركب بعضها على بعض، لينال من هذا مرة، أو يهاجم ذاك مرات، ومنذ حادثة إصابة "شفيقة" تفرغ للمكايدة غيرة وحسدًا.

وبعد أن عاد "غريب"من هولندا ونجحت بعض أفكاره، وجد "سيف جاد" ينتظره ليسخر منه حقدًا، ويرجع اشتعال هذا العداء ونموه،إلى أن جميلة القرية ومعشوقته المستعصية عليه"رجاء" قد أحبت "غريب" حبًا كبيرًا، وظلت تنتظره، وتعزف عن الرجال حتى عودته وهذا ما يشعل النار في صدره أكثر.

لم يفق "غريب" من أفكاره إلّا عندما حضر محاسب الفندق "سمير" وأعطى له شيكًا بثمن ما قام بتوريده من عسل، كان ذلك قرب السادسة مساءً، فهرول نحو الباب للخروج خوفًا على أمه من القلق، اتجه نحو السيارة كما السهم المارق من القوس، وقادها بسرعة جنونية. يريد أن يقطع المسافة في لمح البصر.

كان طريق العودة شديد الزحام، والسيارات تحاول أن تسرع مندفعة، تحاول الخروج من حارة إلى حارة لعلها تختصر المسافة دون جدوى، خلّف الزحام فوضى، وتلوثًا، وضوضاءً خرجت عن نطاق السيطرة، وكان "غريب" ينظر من حوله فيرى أن الطرق قد عجزت عن استيعاب الكثافة المرورية، حتى أصبحت قيادة السيارة أو الحافلة مغامرة قاتلة، ولكنه تعايش كالسائقين مع فوضى الزحام.

في منتصف الطريق التصقت بـ "غريب" شاحنة نقل كبيرة من جهة اليسار دون أن يدري إلّا بنفسه محشورًا بينها وبين شاحنة أخرى باليمين، ضاقت المسافة بينهما حتى تأكد للجميع أنه حتما سيسحق تحت أحدهما، انطلق الصراخ من سيدة تقود سيارة خلفه، فسُمع صوت انفجار مروع مختلطً بعويل وبكاء.

٢-الجذور العميقة

كان "دياب النمر"عمدة قرية "كفر الهوى"رجلاً في منتصف العقد الخمسين من عمره، متوسط الطول، يميل إلى السمنة، ولذا يبدو قصيرًا بعدما غطس جزءُ من طوله في تخنه، ورغم ذكائه كان قليل الثقة بنفسه، وبغيره، ويغدر بكل عزيز عليه؛ إذا تطلبت مصالحه ذلك، ورغم ثرائه يشعر بالدونية وقلة الأصل.

ومنذ أن تحسنت أحوال "دياب النمر" تنكر لأهله، وإخوته الثلاثة، وقاطع كل أقربائه، بيد أن أخاه الكبير "أبو المجد" حاول كثيرًا أن يقربه من العائلة دون جدوى، وعندما يئس من تغير حاله فضل الصمت، لأنه عرف أن زوجته "فاتن" كانت ترفض هذا التقارب، ولا تريد لأحد غيرها أن يستأثر به.

يُحكى عن"دياب النمر"في أرجاء القرية الكثير، والكثير، فقد تدحرجت حوله العشرات من الشائعات، تارة يقال إنه قد عثر على كنز دفين في جدار بمنزله القديم، ومنهم من يقول إنه وجد عنق جمل ذهبية أسفل عقب الباب، وبعضهم يؤكد أنه استخرج بلاصًا من الجنيهات الذهبية قد دفنها الجد الكبير في قلب الحائط السميك بوسط الدار، ومنهم من يقسم بأغلظ الأيمان أنه عثر على تمثال من الذهب الخالص في عتبة غرفة الخبيز، ولم تكن تلك التأويلات قاصرة على العمدة وحده؛ فهي تستهدف كل فقيرنَجَا بِنَفْسِهِ مِنْ الفقر، ولم يعلم أحدُ سببًا لثَّرائه.

يرجع سبب تلك الأقاويل المتعددة وغيرها إلى أن "دياب النمر"سليل أسرة شديدة الفقر، كان أبوه يعمل أجيرًا بالمعاش لدى "حسونة الفقي" عمدة القرية الراحل منذ عدة عقود، وبعد انتهاء خدمته العسكرية بمدينة الإسكندرية، استقر بها بمنطقة العجمي قرابة عقد من الزمان، وعاد بعدها للقرية بزوجته "فاتن"،ليبني بيتًا فاخرًا، ويشتري الأراضي الزراعية، حتى أصبح من الأعيان، وبعد إفلاس الأثرياء وصعود المعدمين تبدل الحال، وعين مشفوعًا

بالثروة عمدة للقرية، ورغم عوار أصله؛ جبر المال نقيصته.

كانت"حميدة"تسمع الكثيرعن سوءات العمدة الجديد،وتخشى على ولدها منه؛ فالغموض الذي حوله يُشْعرها بالخوف. وخاصة أنه سعى سعيًا حثيثًا نحو هذه الشراكة، وقبل بكل الشروط،، وفُسر الأمر وقتها أنه يريد مصادقة الشباب المتعلم ليرفع من شأن نفسه؛ جرّاء إحساسه بالدونية، وحتى الآن لا أحد يعلم لب الحقيقة، أو سببًا لتلك الشراكة سوى"دياب النمر" نفسه.

مازالت القرية تلفظه في الباطن وتبجله في الظاهر، فصورة أبيه لا تفارق خيال أهل البلدة، فقد كان "النمر" الأب اسمًا على غير مُسمى، كان هيكلاً هزيلاً نحيلاً كالدجاجة، ويمشي كالبطة العرجاء، أما حماقته فقد فاقت كل الحدود، كان من أهل الخرافات والهذيان، ويمتلك حمارًا هو كل ثروته، يكلمه كأنه يخاطب البشر، كان يفتح فمه ويصب الشاي فيها صبًا،وعلمه شرب الدخان، بوضع سيجارة ملفوفة في أنفه، فيدخل الدخان صدر الحمار مع كل شهيق، وعلّمه شرب المعسل، بوضع غابة "الجوزة" في أنفه فيستنشق دخانها، وأحياناً يعطس الحمار فيطرد الهواء في البرطمان الزجاجي فيصعد الماء من قلبها إلى قمتها؛ ليطفئ النار فوق الحجر المحشو بالمعسل والفحم المشتعل.

ومن نوادر "النمر"الأب أنه اشترى في شهر رمضان دجاجة للفطور، وقد تأخر بعد المغرب بساعتين، ولم تنتظره زوجته"مبروكة"حتى يعود، وتناولت الفطور هي وأولادها على نصف الدجاجة وتركت له النصف الآخر، وعندما عاد هاج وماج، يرىد الدجاجة كاملة وتجمع الجيران لتهدأته دون جدوى، كان يرىد من زوجته بأن تخرج نصف الدجاجة من بطنها وبطن الصغار؛ ولم يهدأ إلّا بعد أن قام بعض الجيران بضربه بالنعال فوق رأسه، فخرج إلى الفضاء ينتظر ليلة القدر، ليدعوعلى زوجته، وعلى من ضربه.

جلس ينتظر الليلة الموعودة فغلبه النعاس، حتى أفاق على نار مشتعلة على مدد الشوف، خفتت مرة واحدة، فظنها علامة من علامات ليلة القدر فنسي ما خرج من أجله، ودعى لولده "دياب" بأن يصبح العمدة، ثم عاد يهرول

في منتصف الليل ينادي على زوجته "مبروكة" ويكرر مايلي :

- يا مبروكة يا زوجتي لقد رأيت ليلة القدر ودعوت لـ"دياب" بأن يصبح عمدة القرية.

تداخل النداء في جوف الليل مع طبلة المسحراتي، وسمعه معظم أهل القرية أثناء تناولهم للسحور، فامتزج الضحك بالطعام، وكاد بعضهم أن يبتلع الطعام في رئته من شدة الضحك، فلم يكن "النمر" يملك من القوة إلّا صوته الجهور، عاد للبيت ونسي ما حدث كعادته، وبشر زوجته بهذه الدعاء، ثم أدلف نحو حلة الطعام يلتهم نصف الدجاجة الذي رفض تناوله منذ عدة ساعات.

في الصباح كانت قصته على كل لسان أهل القرية، النسوة تقصها وهن يغسلن القمح في الترعة استعداداً لطحنه، فتروحن بسيرته عن كبتهن، والرجال في الحقول يتبادلون سيرته في حديث الصباح، فترتسم البسمات على جباه أنهكها الشقاء.

الكل يعلم أن النار التي رأها " النمر" لم تكن سوى نـارًا أشعلها "خفير الوسية"في كومة قش بالقرب من "العزبة البحرية" المملوكة للعمدة "حسونة الفقي"، وذلك بهدف الخلاص من بقايا قش الأرز حتى لا تحوي بعضًا من الحشرات الضارة.

طار الخبر إلى"حسونة الفقي" عمدة القرية فضحك ثم استشاط غضبًا، فميراث القرويون وجل مجدهم في أن تبقى العمودية في أحضان العائلات الكبيرة، وخروجها إلى عائلة أخرى عارٌ لا يساويه عار آخر. معنى هذه الدعوة أن يزول ملك أبنائه وأحفاده، أوغرت تلك الدعوة صدر العمدة، وعجز أن يسيطر على سماحته التي طالما اشتهر بها. فقد منح "النمر" أجرًا على عمل لا يقوى على القيام بمهامه.فكان كلما طرده ناظرالعزبة أعاده رفقًا بأسرته.

لم تكن المشكلة في عدم قدرة "النمر"على العمل فحسب؛ بل في عرقلة سيره؛ فعمال "الوسية"أينما وجدوه يتركون العزيق في الأرض، أو حرثها ويلتفون حوله، يستمعون نوادره فيضحكون، كانت القصص التي يحكيها كأنها تأتي من

جعبة "جحا"معبقة بسخرية السنين، وشر البلية ما يضحك.

كان شوق الكادحين للبسمة كشوق الأرض القاحلة إلى قطرات الماء كي تحيا، وبمجرد ظهوره يهرع عمال "الوسية"نحوه في مجموعات، تارة يكون كالحاوي، وتارة كالأراجوز، كان يستقطب الفلاحين بالقرية، لعل ما يقوله يبلل عطش الأرواح الظمآنة للسعادة، كانوا يعلمون أنه فارغ، بيد أن انتزاع الضحكات الشحيحة فيها بعض السلوى. وجه الشبه بينهم أن الخلل في عقل"النمر" يقابل الضنك في أرزاق الأنفار، فالحمقى وبعض الفقراء جلهم في الهم سواء.

كانت المفارقات التي تنجم عن الحديث مع المخبول هي مصدر الفكاهة، فاللامعقول في عالم الأحياء يفجر الكوميديا البيضاء، والسوداء في آن واحد، كانت نوادره تصرف الأنفار بما يقول عن أداء الواجبات، وهذا ما يغضب ناظر العزبة "معروف"، ويعرضه للمحاسبة أو الرفد إذا قل حجم العمل عن معدله الطبيعي، في صورة هزلية يرتفع صراخ "ناظر العزبة"وهو يحسو التراب على رأسه ورأس "النمر"،فيمتزج الغضب بضحكات العمال وهم يهرولون إلى الحقول خوفًا من العقاب. فربما من ظفر بالتسرية عن نفسه في صباح هذا اليوم سوف يخصم منه الرغيف في المساء، عقابًا على ترك العمل، ومجالسة "النمر".

تطوع الخفراء بإنزال أشد العقوبة على"النمر"جرّاء مكنون دعوته التي تبشر بزوال ملك عمدتهم المحبوب، فقيدوه، وجلدوه بالسياط جلدًا مبرحًا؛ حتى بلغ صوته الجهوري عنان السماء؛ فسمعه الطير والدواب والبشر.

لم ينقذه من أيديهم سوى"شريف" ابن العمدة "حسونة الفقي" فأطلقوه ليطوف بالقرية بالمساء يحكي آلام الجلد، وعدد الضربات التي تلقاها بالسياط، فكانت حكاويه مجالاً جديدًا للفكاهة.

فجأة وبعد عدة عقود؛طفت تلك الحكايات القديمة فوق السطح من جديد، وكأنهاحدثت بالأمس. فمن خصائص القرية أن سجل فلاحيها بحلوه ومره، محفور بالتواتر بين عقول أبنائها، ويُعير الأبناء والأحفاد بسيئه، ويحمدو بحسناته.

وجد الشباب العاطلون في سرد هذه الأحـداث مجالا جديدًا للتسرية، فنشروهاعلى صفحات الفيس بوك رمزًا وتصريحًا، وأيضًا تعبيرًا عن رفضهم للعمدة الغامض الذي لايعرف أحدًا لأصله شرفًا، ولا لثروته مصدرًا.

فجر كل ذلك غضبًا عظيمًا لدى "دياب النمر" وعزم على مواجهة الساخرين منه ومن أبيه بأية وسيلة، فقد كان شريرًا يجيد التدبير والتخطيط، ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بقرارته، أوفيما يفكر به، بيد أن البعض شاهده يحمل بندقيته الآلية على ظهره، ويركب سيارته وحده، دون السائق، وكل الخوف أن يرمي بجحافل غضبه فوق رأس شريكه"غريب"فالمزرعة التي زُودت بدوائر موسيقية للجاموس هي من فجر هذه السخرية القاتلة بالقرية، أو ينتقم من "سيف جاد" مفجر السخرية على صفحات التواصل الاجتماعي.

٣- همس الحنين

يقع بيت"رجاء الفقي" أمام بيت حبيبها "غريب" مباشرة، وكان منزلاً عظيم البناء، كأنه قصر، وقد بناه أحد المهندسين الإنجليز قبل عام ١٩٥٠م، طوابقه الثلاثة عالية، على عكس العمارة الحالية، فارتفاع كل طابق يقترب من ٥ أمتار، بهدف مقاومة حرارة الصيف، والشرفات متسعة المساحة، مزركشة بالرسوم المتنوعة كما اللوحات الفنية، أما أرضيات البيت كانت مكسوة بحلل من الرخام الأخضر، وكان هذا البناء هو محل إقامة جدها العمدة، قبل أن يؤول إلى أبيها بعد تقسيم الميراث.

أما "رجاء الفقي"فكانت كالحورية، تميل إلى الطول قليلًا، بشرتها شديدة البياض الممزوج بالاحمرار، وجهها مستدير، وجبهتها عريضة، أنفها رقيقة، وشفتاها حمراء غليظتان، عيونها عسلية صافية لامعة، جسدها شديد التناسق، أما تاجها المطرز بالجلال، كان شعرها الطويل الناعم، الذي يتدلى مفرودًا كأمواج الليل فوق خصريها، كأنه غطاء من سحر الجمال الخالص، هيئتها وشكلها يضفيان عليها سمات العظمة البشرية، فتلجم الهيبة من يراها، عن متابعة فوران الأنوثة المشتعلة بكل سمات الجاذبية، فتخضع لحسنها كل القلوب الخضراء، كانت تجيد لغة التعبيرات الصامتة، فنظرة الغضب تشعر من أمامها بالضآلة، فيكف عن ملاحقتها، فراراً من هيبتها، ونظرة الرضا تمنح الموعود مفاتيح السعادة، فيطفو فوق نهر الرحيق بهمسة منها.

تطل فاتنة القرية كاللؤلؤة المنيرة من شرفة غرفتها، بالدور الثالث،تنتظر عودة "غريب"من القاهرة،لتطمئن عليه، لقد أفلت الشمس هذا اليوم، ولم يشرق وجه الحبيب كما النور فوق المساء، فقد اعتادت كل يوم أن تسترق النظر

ترقبه، وتتابع وصوله، ما يزعجها أن أمه في شرفة بيتها بالطابق الأول تجلس مهمومة، وكأنها تتقلب على الجمر من القلق،ودون أن تدري غاصت معها في بحار من الحيرة، وعلمت بفطنتها أنه لم يأت بعد، ومن لهفتها حدقت للتأكد؛ فكاد نصفها الأعلى أن يسقط بها في الشارع، وهي تمعن النظر خوفًا ولهفةً على الحبيب، ورغم خوفها من مجهول لا تعرفه، كانت كأنها البدر ينثر النور فوق الأرض، فيصبو المارة من الرجال نحوها؛ لعل بعضًا من رحيق أنوثتها يتساقط فوق رؤوسهم فيرتوي الحالمون بالحسن الفريد.

لم تكن الفتاة من فرط القلق تشعر بمن حولها، قد تأخر الحبيب عن العودة، فقد تعودت مع دقات الثامنة من كل مساء أن تلقي السلام عليه وجها لوجه عبر شرفتها التي تقابل شرفته مباشرة، ثم يتبادلون الحديث والرسائل ليلاً على صفحات "الفيس بوك".

بدأت قصة الحب العنيف والعفيف بينهما منذ أكثر من تسع سنوات، يوم أن كان "غريب" عائدًا من القاهرة بعد أن حجز تذكرة السفر إلى ليبيا للانطلاق منها نحو هولندا، وكانت "رجاء" عائدة من جامعة القاهرة تستكمل أوراق ترشيحها لكلية "الألسن"،جلست بجواره بالسيارة، رحب بها على أنها ابنة جاره "شريف حسونة الفقي"،وتبادلا الحديث، وعلمت الفتاة من الحوار بأنه سوف يسافر للعمل بالخارج.

كان التحدي في عيون الفتى يشي بأنه لا يهاب الخطر في سبيل الهدف، شعرت بأنها أمام رجل كامل النضج، فراحت تشكو له عما أصابها من إحباط جرّاء مكتب التنسيق، فبعد أن حصلت على ٩٢ % في الثانوية العامة لم تجد أمامها سوى كلية "الألسن"، وضاع أملها في أن تلتحق بكلية الصيدلة، كان يواسيها كأم رؤوم تبذر الحنان على طفلة رضيعة تصرخ من شدة الألم، شعرت بارتياح من فرط رزانته، ودون سابق إنذار سرت في روحها مشاعر لم تعهدها من قبل، ولم تدر ما هي، مر الوقت سريعًا، وعادا إلى القرية.

كانت سمعة الفتى كرياضي متفوق تملأ الآفاق بالقرية، فقد فاز في مسابقة

سباحة المسافات الطويلة للجامعات المصرية عام٢٠٠٦م، وهو بالفرقة الثالثة بكلية الزراعة جامعة القاهرة، وكُنيى بابن النيل نظرًا لمهارته في السباحة والصيد اليدوي من النيل، وكان كلما غطس في عمق الماء خرج، وفي فمه سمكة، وفي كل يد سمكة، كان شعلة نشاط، وكم عمل بالفنادق السياحية منذ أن اجتاز المرحلة الإعدادية، وفي كل عطلة صيفية يعمل بفندق مختلف، كل شيئ فيه كان محل تقدير وإعجاب، أخلاقه، سرعة البديهة،حتى زيه رغم بساطته أنيق.

لم يكن كل ذلك في السابق يلفت نظر "رجاء" نحوه،ورغم أنهما جاران، ولا يفصل بين منزليهما سوى بضع أمتار، لم يلتفت كلاهما للآخر، إلا في هذا اليوم. ترك هذا اللقاء بصمة جديدة في نفسيهما، تأكد اثنتاهما أن سهم الحب قد استقر في قلبيهما في نفس اللحظة.

بعد أن عادت "رجاء"إلى المنزل، وأدلفت نحو غرفتها، تسترجع كل ما دار بينهما من حديث، كانت كلماته العذبة ترن بأذنيها كما الموسيقى. قضت الجريحة بالهوى ليلتها هائمة، ولم تنم إلّا كالغريقة في عشق الفتى.

وفي صباح اليوم التالي على محطة السكك الحديدية كانت على موعد مع القدر، وذلك حين وجدته يجلس في مقعد جانبي، في انتظار القطار المتجه نحو القاهرة، هرولت نحوه كأنها وجدت ضالتها:

- رجاء: صباح الخير يا أستاذ غريب.

- غريب: صباح النور يا رجاء، إلى أين أنتِ ذاهبة.

- رجاء: إلى القاهرة كي أشتري زي الجامعة.

- غريب: وأنا أيضًا ذاهب لشراء ملابس السفر، فالأسعار بالقاهرة أرخص من غيرها

- رجاء : نذهب معا.

- غريب: فرصة كي يساعد كلانا الآخر في الشراء.

جلست بجواره دون أن تبالي بنظرات أهل القرية، أو عيون الشباب من حولهما، كانت لا ترى سواه، دار بينهما حديث رقيق، من فرط الألفة بينهما، لم ينتبها إلى وصول القطار إلا بعد أن أطلق صافرته القوية، وهو في قلب المحطة استعداداً للمغادرة، بسرعة نهضا وركبا معًا، رافقته طوال اليوم في رحلة الشراء. كانت تستشيره في كل قطعة من الملابس قبل أن تأخذها، وتستجيب لرأيه. كان يتمتع بذوق رفيع، وهو أيضًا كان يأخذ رأيها فيما يشتريه من ملابس.

بعد الانتهاء من شراء الأغراض، دعاها لتناول الغذاء في مطعم صغير، أكلا بعضًا من سندوتشات الفول والطعمية، كان الطعام لذيذًا رغم بساطته، كأن حلاوة اللقاء امتزجت باللقيمات، وشربا بعضًا من المثلجات فذاب الحب فيها، كاد الوقت أن يسرقهما، عادا قرب المساء إلى القرية، وكل منهما يحلم بأن يرتبط بالآخر.

توطدت العلاقة بينهما، ولم يمض سوى شهراً حتى صارحها "غريب" بحبه الجارف، فتلقفت اعترافه بروحها، فارتوى قلبها بماء الحب الرقيق، فتلتحم الأرواح ببعضها البعض تزف السعادة فوق الرحيق الشَّهي.

كان هذا الحب الجديد بمثابة حافز جديد للسفر، فـ"غريب" لا مجال أمامه سوى إقامة مشروعه الخاص، فقد كان حلمه إقامة منحل لإنتاج العسل، ومزرعة للألبان، وهذان المشروعان يحتاجان لثروة طائلة، ولا يملك الفتى منها شيئًا، علاوة على بناء بيت أبيه القديم الذي تصدعت أركانه، فالمنزل مازال بالطوب اللبن، ولولا أنه من بقايا الرخاء منذ زمن الأجداد، ما صلح للمعيشة، فقد بُني على مساحة كبيرة، كعهد بيوت الأكابر القديمة في القرى.

ورغم بساطة البناء، قد تفنن البناؤون في زخرفته، فتحولت الجدران المصنوعة من الطين، إلى لوحة بيئية رائعة الحسن، الشبابيك كبيرة على هيئة مستطيل، وشرفة الدور الثاني محمولة على خشب السقف، على هيئة مشربية مصنوعة من الخشب "الزان"،أمام المنزل مساحة فضاء، تنتهي بسور من الطوب اللبن، ويتوسطه بضع شجيرات تضفي مسحة من جمال عليه، وخلفها حديقة

صغيرة بها بعض أشجار الفاكهة، كان كل ذلك يجبر تصدعه، ولولا ما حوله من أرض خضراء ما صلح للمعيشة، وذلك لانخفاضه عن الشارع بنحو متر، بسبب ارتفاع الشوارع التدريجي بالقرى، جرّاء عمليات الإحلال والتجديد، وردم الشوارع بمخلفات هدم البيوت اللبنية، وإقامة المباني الخرسانية بدلا منها.

لم تكن أسرته تمتلك من الأراضي الزراعية سوى فدان واحد، يكفي بالكاد لتأمين متطلبات الحياة، علاوة على مصاغ أمه "حميدة"الذي رفض قيامها ببيعه كي تبني المنزل القديم، وتزوجه، وذلك تحسبًا للطوارئ، نظرًا لكبر سنها، وتكرار تعرضها لبعض الوعكات الصحية، فقد خشي عليها من تبعات المرض، وخاصة بعد أن شاهد جارهم "جابر الوكيل"يموت بسبب عدم وجود إمكانيات بالمستشفيات الحكومية، وضعف قدرته على العلاج بالمستشفيات الخاصة، ولذا لا يوجد سبيل أمام الفتى سوى السفرللعمل، والعودة بالمال.

اشتعل صدر"رجاء"خوفًا عليه، لأنه ينوي السفرإلى أوروبا بطريقة غير شرعية، حاولت إقناعه بإلغاء فكرة السفرولكن دون جدوى.

في خضم ذلك، وحيث يغوص الحبيبان في بحر الهوى، والحيرة بسبب مغامرة السفر كان "سيف جاد" يعتصره الألم، فقد علم بعلاقة "غريب" مع "رجاء" التي طالما كانت تصده، وترفض حبه، كانت لا تطيق رؤيته.

فقد كانت خطة الفتى"غريب"هي السفر عن طريق ليبيا إلى إيطاليا بحرًا ثم إلى هولندا عن طريق سائق شاحنة هولندي موثوق به، فقد وعده صديقه"علاء بكر"الحاصل على الجنسية الهولندية بالعمل معه في مزرعة حماه، حال نجاحه في الوصول، ورتب كيفية تهريبه من إيطاليا.

لقد أخفي"غريب"عن أمه وجهته، فهي تعتقد أنه سوف يسافرإلى الكويت بعقد عمل،لأنها لوعلمت لمنعته بدموعها وخوفها، كان الفتى حنونا وبارا بأمه، بيد أن التحدي كان أكبرمنه.

أخفى مقصده الأن القرية قد فقدت العديد من شبابها في عرض البحرعلى سواحل أوروبا، كانت بعض الجثث تعود ملفوفة في الأكفان جثة تلو أخرى،

وآخرون لا تعود لهم جثة، ربما دفع الطريق المسدود بعض الشباب إلى الفرار من البطالة نحوالسفر المحفوف بالمخاطر،فما أقسى أن يشعرالمرء أن أعواد الأمل لا تخضر إلا بالعبور فوق باحة الموت، كانت المغامرة تساوي بقايا الأعمار، فإما النجاح في الهروب من الضياع، أو تسوقهم الأقدار نحو الدارالآخرة.

وعندما جاء موعد السفر خرجت "رجاء" تودعه وقلبها ينزف خوفًا على الحبيب من المصير المجهول، فهي الوحيدة التي تعلم وجهته، وقد حفظت سره رغمًا عنها، واتفقت معه على التواصل على"الفيس بوك" من بعد العاشرة مساءً بتوقيت القاهرة حال وصوله إلى هولندا، وسافر الفتى ليصارع المصير المجهول من أجل الحياة.

واليوم وبعد عدة أعوام من هذه الذكريات كانت تشعر بالقلق الشديد عليه،كما كانت تشعر قبل سفره منذ بضع سنين،ولاتدري سببًا لهذا الحزن، وهذا جعلها تسترجع بعض الذكريات الماضية، بحلوها ومرها، قلبها يخفق خوفًا منذ بداية النهار، فجأة وهي بالشرفة، كانت الساعة تقترب من الثانية عشر في منتصف الليل شاهدت سيارة "غريب" قادمة يقودها شخص لا تعرفه، وبجواره غريب وقد لفت يده في الجبس، طار عقلها،وعقدت العزم على النزول في ذات اللحظة لتعرف ما حدث لحبيبها، بيد أن ذلك سوف يسبب لها المشاكل مع أسرتها، ومن فرط القلق لم تستطع حسم أمرها؛ لأن خروجها في جوف الليل مشكلة كبيرة، وزّلة لا تغتفر، تشدها التقاليد نحو الصبر حتى الصباح، ويشدها الهوى بعنف من الجانب الآخر، كي تهبط للاطمئنان عليه، ولا أحد يتوقع ما هي فاعلة.

٤- صوت المعاناة

أثناء الحادث الأليم، رفرفت العناية الإلهية فوق الفتى"غريب"، فقد استطاع أن ينحرف بسيارته هاربًا من الموت نحو يمين الطريق فسقط بسيارته في أرض زراعية بجوارها ترعة عميقة، ققفز من السيارة خوفا من سقوطها في الماء، فسقط على ذراعه اليسري فكسرت، وشجت قطعة حديدية بالأرض الجانب الأيسر من جسده، وتجمع المارة حوله لإسعافه، والتقط أحدهم تليفونه المحمول، وطلب آخر رقم فرد عليه"سمير"محاسب فندق "ماريوت"، الذي أبلغ الإدارة فأخرجت سيارة معه لنجدته، وعندما وصل وجده ملقى على الأرض ينزف، وسيارته على بعد خطوات من حافة الترعة لم تصب بأذى، صرخ في المارة لتقاعسهم عن نجدته، كان الكل يخشى عاقبة الشهامة، فإذا نقله متطوع إلى العلاج؛ ربما يتم اتهامه بأنه الجاني، ولذا لم يجرؤ أحد ممن حوله على نقله إلى المستشفى خوفًا من المسئولية.

بسرعة حمله"سمير" إلى أقرب وحدة صحية لإنقاذه، وفي غرفة الاستقبال تم عمل الفحوصات اللازمة، وتبين من الأشعة الطبية وجود شرخ بذراعه الأيسر، وتم تجبيسه، أما الجرح القطعي بجانبه الأيسر فقد كان عميقًا، وتمت خياطته بعشرةغرز.

بعد أن عاد "غريب" إلى الوعي، طلب من فوره العودة إلى المنزل حتى لا يسبب القلق لأمه، وافق الطبيب على خروجه، وكتب له قائمة بالعلاج المناسب، حاول النهوض وحده فلم يستطع، كانت الآلام بجسده شديدة، فأمسك به "سمير"وحمله إلى السيارة، واصطحبه إلى القرية، حتى أدخله منزله.

عندما شهدته أمه غارقًا في دمائه وذراعه ملفوفة في الجبس كادت أن تموت

حزناً، ولولا أن "سمير" طمأنها ببضع كلمات لسقطت مغشيًا عليها، وتم نقله إلى غرفته، ونام نومًا عميقًا بسبب كثرة الحقن المخدرة، والتي أخذها لتخفيف حدة الآلم.

كانت الأحداث الأليمة المطبوعة في عقله الباطن تمر أمام عينه، وهو نائم، وقرب الساعة الواحدة صباحًا؛ وهو على سريره، مر على باله التاريخ المطبوع فوق شريط الذكريات منذ أن ودعته "رجاء" وهو يركب استعداداً للسفر.

دار في رأسه طنين الذكريات، كان ممدّدًا فوق الفراش، يرى بروحه، ويسمع بأذنيه كل أصوات الماضي البعيد، كأنها تناديه، وتلح عليه بالصور، فيشاهد بحواسه، ويستعيد بذهنه مرارة المواقف المحفورة في أعماقه حفرًا، تذكر حاله عندما كان يقدم جواز سفره للسلطات المصرية بمنفذ "السلوم" البري للعبور نحو ليبيا، ومنها نحو إيطاليا، ثم هولندا، فقد كان السفر وقتها متاحًا للمصريين إلى ليبيا دون تأشيرة مرور مسبقة، وذلك بسبب اعتماد الحكومة الليبية لفكرة القومية العربية، كانت المفاجأة أنه وجد اسمه على قوائم الممنوعين من السفر، مع أنه لم يقترف مخالفة قانونيةً في حياته.

بالسؤال والتحري، وجد "غريب"أن اسمه قد أدرج في قائمة المتهمين في قضية توظيف الأموال ضمن شركاء النصاب"شاكر أبو السعود"،وذلك في قضية شهيرة نشرت أخبارها بالصحف والفضائيات، وكان هذا المحتال قد أوهم المصريين بأنه يستثمر الأموال في مشروعات تدر عائدًا سنويًا بنسبة ٥٢% فجمع ١٠٠ مليون جنيه، وقبيل الهرب خارج البلاد تم القبض عليه، وتم التحفظ على ممتلكاته، ووضعه على قوائم الممنوعين من السفر، هو وكل مساعديه، عندئذ تأكد "غريب"أن هناك تشابها في الأسماء مع أحد المتورطين في جريمة النصب المحررة.

وكل ما أزعجه وقتها هو التأخير عن السفر، ولذا اتصل تلفونيًا بصديقه المحامي "عمرو صقر" ليتخذ الخطوات اللازمة، فسأله عبر الهاتف:

- غريب: كم من الوقت يلزم لتصحيح الخطأ في تشابه الأسماء.

- عمرو: ربما شهر أو أكثر.

- غريب: لماذا هذا الوقت الطويل.

- عمرو: الإجراءات القانونية معقدة، وربما تأخذ وقتًا أطول؛ لأن النيابة العامة هي صاحبة البت في طلب تصحيح الخطأ، وفي مثل هذه المواقف يتم تحري الدقة.

- غريب: اتخذ ما يلزم من إجراءات بالتوكيل القديم الذي حررته لك، وكل ما تريده من مستندات خذه من أمي، أما أنا سوف أسافر إلى ليبيا بطريقتي.

على فوره أخذ"غريب" قراره بالسفر عن طريق المهربين، والذين يساعدون الفارين من القانون، أومرتكبي الجرائم على مغادرة البلاد، عبر الطرق الصحراوية الوعرة، وفي مخاطرة غير محسوبة توجه نحو واحة "سيوة" المصرية، وقبيل الواحة بعدة كيلو مترات التقى المهرب، واتفق معه على تكاليف رحلة الهروب إلى ليبيا عبر الحدود.

وبعدها بيومين، ركب مع وفد استقل سيارات دفع رباعي نحو ليبيا،وعند الحدود المصرية الليبية وقفت السيارات، ونزل مع أربعة عشر رجلًا جميعهم يقصدون ليبيا، إلّا هو كان يقصد عبور البحر الأبيض المتوسط نحو الشمال، كانت وجوه رفاقه من الفارين تحمل علامات البؤس، بعضهم هارب من أحكام قضائية، وبعضهم هارب من الثأر، وبعضهم خرج يبحث عن كسرات من الخبز.

تجمعوا في صحبة الدليل، واستعدوا لعبورحقل الألغام الفاصل بين الحدود، كانوا يتحركون بحذر، ويخشون العبور، فربما هوت قدم أحدهم فوق لغم أرضي فمات مبعثرالأشلاء، كانوا يدعون التماسك، ويرتجفون من الداخل، تفصلهم عن واحة"جغبوب" الليبية بضعة أمتار، فوقفوا مع أحد مقتفي الأثر يتطلعون نحو الجانب الآخر، قاصدين عبورالممرات المحفوفة بالموت.

كانوا يتحركون مذعورين، ويعلمون أنهم إذا تباطأوا، فإن الصحراء القاحلة تطلب حياة المتقاعسين عن إنجاز المهمة؛ متى نفذ الماء والزاد، فأعمارهم

مرهونة بما يحملون فوق ظهورهم من مؤن للحياة، وهذا قانون الصحاري القاحلة، فكم قتلت ندرة الماء وجه الحياة فوقها!! وسوف تقتل من يتباطء في العبور من دروبها، وهذا هو التحدي، والرهان الذي لا يقبل التراخي.

تحركوا يرعبهم ما ينتشر على وجه الرمال من بقايا الأشلاء اليابسه، ومتنوعة، منها عظام، وجماجم بشرية، وأخرى حيوانية، فوق طرفي الشريط الحدودي المزروع بالألغام، كان مصير الموتى السابقين، يرعب الأحياء الحاليين، فربما انفجر لغم في أحدهم، فتحولوا معه ركامًا،وحطامًا.

المشكلة في أن هذا الحقل الكبير تـم زراعته بالألغام على الحـدود بين مصر، وليبيا أثناء الحرب العالمية بين دول الحلفـاء الذين سيطروا على مصر وقـوات المحور من إيطاليا، وألمانيـا الاتين كانتا تسيطران على ليبيـا، وكأن الاستعمار عندما رحل عن الشرق كان يأبي إلّا أن يترك الموت من خلفه؛ جاسمًا فوق أعمار البشر ليفنيهم.

عبروا الحدود والخوف ملء قلوبهم، وفي الأراضي الليبية استلم الركب مهربان آخران، ذهب معظمهم مع الأول، في سيارة نصف نقل مكشوفة، حيث مقصدهم نحو الجفرة بوسط ليبيا للعمل بالزراعة، وكانوا من فلاحي الصعيد.

تحرك الباقون نحو الشمال، وكانوا أربعة أفراد، ثلاثة منهم يقصدون منطقة سـرت، ليمكثوا للعمل فيها، أما "غريب" فسوف ينطلق بعدهم إلى"طرابلس"العاصمة؛ لعبور البحر نحو أوروبا، فركبوا جميعاً في صندوق سيارة ربع نقل، بعد أن سبقهم المُهرب ليركب بجوار السائق في كابينة القيادة، وهم يسيرون في الطريق، واستقربمنطقة"جلو"وبعد مغادرة واحة"جغبوب"ببضع كيلو مترات؛ حلّقت فوق السيارة طائرة هليكوبتر، من القوات الجوية الليبية التي تراقب الحدود، هبطت من الهواء لا يفصل بينها وبينهم إلّا بضع أمتار، أصاب الهلع الجميع، فسمعوا النداء عبر مكبر الصوت، يطالبهم بالتوقف:

- صوت الطيار:عليكم بالتوقف فورًا وإلّا سوف تُقصف السيارة بالرصاص ا

الحي، الطريق كله تحت سيطرة القوات الجوية الليبية.

توقفت السيارة، فوق طريق على جانبيه منخفض كبير، وهبطت الطائرة أمامها على الأرض، فسادت حالة من الذعر شلت تفكيرهم، ولكن "غريب"دون تفكير في المصير، قفز من الخلف بشنطة ملابسه الصغيرة، وتدحرج على الأرض يحتضن شنطته، فسقط على يسار الطريق في وادٍ منخفض في حضن الهضبة الصغيرة التي يمر من فوقها الطريق، فوجد نفسه بين الأشجار، والنباتات الصحراوية الجافة، وكادت أن تتكسر أضلعه من شدة السقوط، لولا أن شنطة الملابس التي بحوزته كانت تمتص عنه بعضًا من الصدمات، واستقر أسفل الوادي، لم يره أحد، صدمة زملائه جعلتهم ينسون من معهم، وبعد أن قُبض عليهم أدركوا أنه قد هرب.

ظل "غريب" مستلقيًا على الأرض لفترة لا يعلمها، ربما قضى يومًا،وهولا يدري، كان أسفل شجرة صحراوية شبه هزيلة في منحى ببطن الهضبة، فحمته مع التضاريس من حرارة الشمس الحارقة بالظل الظليل، وعندما عاد إليه وعيه؛ شعر بأن أوصاله ممزقة، كانت الكدمات والجروح منتشرة في أنحاء جسده، علاوة على أن شعوره بالظمأ كان شعورًا قاتلاً، فنهض مع الفجر يبحث عن الماء دون جدوى، هوى على أوراق الشجر بلسانه يمتص بعضًا من قطرات الندى، فلم يُشبع الرزاز عطشه، كان يبحث عن الماء بين الجفاف منهكًا، شربة الماء في الصحراء القاحلة تساوي كل ما يملك الإنسان.

تذكر الماء الذي طالما كان أهل قريته يهدرونه بسفه، سأل نفسه كيف لم ينتبه من قبل إلى تلك الكارثة التي ترتكب في وادي النيل كل يوم؟ لم تكن شدة الموقف تسمح له بالتدبر فيما مضى، فمرت خاطرة الإسراف أمام عينيه كما البرق، في اللحظة الفاصلة بين الموت والحياة يكون كل أمل المرء أن ينجو بعمره، تكاد الروح أن تغادر الجسد مطرودة بالظمأ، شفتا الفتى كانت يابسة، وحلقه يكاد أن يتشقق، وكلما حاول ابتلاعه يكاد أن يبتلع لسانه، لقد جف ريقه كما الحطب.

بحث طويلاً في أرجاء المكان عن بعض من الماء فلم يجد بئرًا واحدًا يسعف ضآلته، فالأشجار التي حوله من النباتات البرية التي تنمو على المطر، وهي الأخرى أوراقها ذابلة تنتظرالشتاء كي تحيا، وقد هجرها الطير للفرار بحياته من شدة العطش.

اختلط مع أول خيط للشروق عواء الذئاب الضالة؛ فعلم أنه إن نجى من الموت عطشًا سوف تأكله الذئاب لحمًا، تمنى الخلاص بدلا من هذا الفناء البطيئ، فما أقسى لهيب الظمأعلى بوابة الهلاك القادم من بحر الجفاف.

نظر إلى أعلى فرأى الطريق الذي فر منه هربا خشية حرس الحدود الليبيين، فقرر الصعود لعله يجد هناك من ينقذه. كان يتحرك إلى أعلى بصعوبة، ويحبو حبوًا كما الطفل، كلما تقدم خطوة يجره الوهن نحو الخلف خطوتين، مرت ساعات ولم يبلغ منتصف المنحدر، واشتدت حرارة الصحراء الملتهبة تلسعه بوهج كالنار؛ فيأكل الوهج في جسده، وكلما أوغل قرص الشمس المشتعل نحو منتصف السماء اشتد اللهيب، فبرزت الشمس في الآفاق كقاتل ثالث يطلب عمر الفتى، جلس على حافة الهضبة ليخرج من حقيبته الصغيرة قطعة من ملابسه، كي يلف بها رأسه؛حتى يتلاشى ضربة الشمس المميته ولفحة الحرورالمتوهجة، بيد أن الإعياء كان يجذب ذراعيه إلى أسفل فلا يقوى على رفعهما، بات لف القميص القطني حول الرأس العارية أمنية يبددها الوهن.

بصعوبة بالغة تمكن من لف رأسه، وعاد مرة أخرى يحاول الصعود وهو يلهث من شدة الظمأ، تذكر صديقه "أسامة العربي" الذي ركب في قارب خشبي متهالك وهو في طريقه إلى إيطاليا بالعام الماضي؛ فمات غرقًا، لقد سبقه إلى العالم الآخر والماء المالح يندفع في جوف الغريق، فتشوى ملوحة الماء قلبه بالعطش،فرحل عن الدنيا غريقًا عطشانًا، وهو في بحر يعج بالماء الذي لايروي، كما هي حاله في مثل هذه الساعة، ربما الآن لن تستقر رفاته إلّا في جوف الذئاب كما دفنت أشلاء "أسامة العربي" في بطون الأسماك المتوحشة، ربما كانت طريقة الموت مختلفة، ولكن المصير واحد.

وقتها كان كأنه يسمع صوت جنازته بأذنيه، فيبكي ليس على نفسه فحسب، بل على لوعة أمه عندما يزف لها الخبر المشئوم، لم يهب من الموت في ذاته بقدر ما هاب من حسرة الأم عليه، كان يبكي خوفًا من جزعها بلا صوت، فقد جفت الأحبال الصوتية في حنجرته، وعجزت عن الحركة، كانت مرارة البكاء في أنه صامت، فتسقط الحسرات الجافة بدلا من الدموع في جوفه.

تخيل صورة أمه أمامه، وهي تحسو التراب فوق رأسها، تلك الصورة جعلته يقاوم الموت كحصان عربي أصيل حمل على نفسه في ساحة الوغى ليمنح فارسه حلاوة النصر، فصعد على قارعة الطريق مع الظهيرة ثم سقط على الأرض فاقدًا للوعي بلا حِراك، ربما يفصل بينه وبين الموت دقائق أو ساعات.

٥- المحنة

كان الطريق الصحرواي الذي يتمدد على جانبه الفتى خاليا من المارة، وبعد سويعات قَدِمت سيارة من الجنوب تقصد الشمال، ويقودها التاجر "سليم" من قبيلة "العواقير" بواحة "جغبوب"، وقد عُرف عنه حبه للخير والعطاء، فلم يقصد بابه سائل ورده خائبًا في يوم ما.

كان ذاهبًا لشراء بضاعة لمتجره من طبرق، كان الرجل على أعتاب الستين من عمره، عجنته الأيام بمرها وحلوها، حتى صار من كبار التجار بالواحة، منحته الصحراء صلابة العزيمة، وتعلم من قسوتها رقة القلب، فكان يشفق على كل ذوي الأكباد من لدغاتها القاتلة، فكم جرب منها شدة الجفاء، وكم أوشكت في مرات عدة على الفتك به، فقرر التحالف مع بني البشر ضدها، ليفك كرب من تقيدهم الصحراء بأحبال الموت، حتى تعود الأرواح إلى الأجساد بوهج الحياة.

لقد تعلم من تراث أجداده العرب، أن كثرة الكرم تكسر غدرها، وأن إشعال النيران ليلاً بالصحاري كان عادة عربية من أجل البقاء، حتى أصبحت مهمة كل قبيلة من القبائل أن تنقذ من يمر في مضاربها، وتبادلوا الأدوار في حماية البشر، فمن يُنقذ هذا اليوم سوف ينقذه الآخر في الغد القريب.

عندما رأى الشيخ "سليم"الفتى يرقد مصلوبًاعلى قارعة الطريق، والموت يحلق فوق رأسه، همّ لتنفيذ بنود المعاهدة التي أبرمت منذ مئات القرون، كان المسكين على حافة الطريق فوق الرمال الساخنة، كمن يتقلب فوق الجمر،هبط من سيارته، ورفع نصفه الأمامي إلى أعلى، فوجده يرتعش رعشة المحتضر،

الذي نزف ما بجسده من سوائل علي هيئة عرق، تركه ونهض على فوره وسحب "جرة" الماء من سيارته وعاد بها مسرعًا، بلل الشيخ شفتيه بالماء، وأخذ يحركه بعضًا من الوقت، وبعدها عاد إلى "غريب" وعيه، التقط الجرة ووضعها فوق فمه، دون وعي تشبث بها الفتى كالرضيع ، وهويلتقم صدرأمه من شدة الظمأ، وأبى الفتى أن ينزل "الجرة" إلّا وهي فارغة، بعدها حمله "سليم"إلى مقعد السيارة الخلفي وعاد به إلى منزله بمزرعة الواحة، واستدعى له الطبيب كي يمرضه.

مكث الهارب من الهلاك ثلاثة أيام تحت الرعاية الطبية حتى نجا من غيبوبته، دنا منه الشيخ "سليم"يمسح على رأسه برفق، وعرفه بنفسه، وقص عليه ماحدث منذ إنقاذه حتى هذه اللحظة، ثم التفت نحوه متسائلا :

- الشيخ سليم: ما دفعك نحو الموت يا أخ العرب؟.

- غريب: للفرار من الموت.

- الشيخ سليم: أي موت يا فتى؟

- غريب: موت العاطلين عن العمل، يتخبطون في الفراغ القاتل واللهو، هربت من شبح الضياع كي أبحث عن الحياة.

- الشيخ سليم: لا أدري ماذا أقول لك يا ولدي، ولكن عليك أن تعي أن الفرار من الفقر يحتاج إلى التريث، فالمجازفة بالأعمار مرفوضة، وفي جميع الأحوال مادمت تخرج تبحث عن الرزق الحلال فلن يضيعك رب السماء أبدًا.

استضافه الشيخ "سليم" أسبوعين، بكل ود وكرم، وبعدها استأذنه "غريب" للرحيل نحو طرابلس ومنها إلى إيطاليا، حاول منعه من رحلة الهلاك، عرض عليه العمل معه في مزرعته دون جدوى، فأوكل إلى أحد غلمانه مهمة توصيله إلى طرابلس بسيارته، وانطلق الفتى حيث قدره المحتوم.

وصل إلى"طرابلس غرب"عاصمة ليبيا، وأكبر مدنها، والتي توصف بـ"عروس

البحرالأبيض المتوسط" لجمال بساتينها ومبانيها البيضاء، ولأن المدينة مقامة على رأس صخري مطل على البحرالأبيض المتوسط مقابلا لرأس الجنوبي لجزيرة صقلية، جعلها هذا القرب مقصدًا للمهاجرين نحو أوروبا.

والتقى الفتى بالمهرب، وكان رجلا بلا قلب، غليظ المشاعر، ورغم ذلك لا تبدو على وجهه تلك الغلظة، جراء دفنها في حديث كاذب، وضحكة شديدة النعومة، فكانت بشرته البيضاءعلى عكس سواد قلبه، وعيونه الخضراء نقيض جفاف خلقه، فكان المخادع كحية رقطاء، تجمع المال، وتنفث السم في الأعمار، وبعد مفاوضات شاقة طلب منه٥٠٠ دولار مقابل نقله نحو الضفة الأخرى للمتوسط، دفعها المسافر عدًا ونقدًا.

في الماضي كان "غريب"خلال عمله بالفنادق السياحية بمصر، يدخر "البقشيش" الذي يأخذه من السياح، علاوة على استبدال ما يتبقى من أجر بالجنيه بالدولار، استعدادًا وتحسبًا لمثل هذا اليوم، وقد جمع خلال العمل بالأجازات الصيفية طوال سنوات الدارسة الجامعية نحو ١٥٠٠ دولاراً، كانت هي كل عدته للسفر.

وبعد أن نقد الوسيط ثمن الرحلة، وتحسبًا للمخاطر دس الباقي داخل كيس بلاستيكي سميك مع جواز السفر، وربط الكيس ربطًا محكمًا، ثم لفه حول بطنه بحزام متين، وأبقى في جيبه بعض الدولارات التي تكفي ليلته.

كان الفوج الهارب من القحط معظمه من الدول الإفريقية المتاخمة لدولة ليبيا، ومعظم المهاجرين من مالي، وتشاد، وإفريقيا الوسطى، والصومال، وإرتريا، والسودان. فالقارة السمراء تعج بملايين الفقراء الذين يبحثون عن الخبز بين أطلال الشقاء، وهذا هو لسان حال المقتولين بالعوز، فتدفعهم الفاقة نحوالهرب من طعنات الجدب إلى حضن الرخاء، لعل ضفاف أوروبا تمنحهم صبحًا جديدًا.

وقُبيل السفر تعرف"غريب"على"آدم"من دولة السودان، وكان شابًا نحيلاً رقيقًا، تبدو عليه آثار سوء التغذية، وجاء مثله يرغب في الهجرة نحوأرض

الشمال، قضي معه اليوم السابق للسفر، وكان نعم الرفيق، فالدم الذي يجري في عروقهما، قد يكون من ماء واحد، ماء النيل الزلال، تولّدت بينهما ألفة وحميمية كأنما يعرفان بعضهما البعض منذ أمد بعيد.

تناول مع "آدم" وجبة الغذاء، وسمع منه كل أخبار الشمال والجنوب، لمس كل منهما في الآخر روح الأخوة، فمر الوقت العصيب سريعًا.

يتطلب الوصول إلى إيطاليا انطلاقا من ليبيا، قطع مسافة تقدر بنحو١٩٠ ميلاً بحريًا تقريبًا، وهي أقل مسافة بين"طرابلس"وجزيرة "لامبيدوزا الإيطإلية"،وعادة ما تتم رحلة الموت على متن قوارب مطاطية أو سفن متهالكة؛ لاتقوى على مواجهة هيجان البحرإذا زمجر، وتسير بسرعة أربع عُقد في الساعة عندما يكون الطقس مواتيا. تحرك الركب تحت جنح الظلام، للهروب من الرقابة الجوية المفروضة على البحر لمكافحة الهجرة غير الشرعية نحو الشواطئ الغربية من قبل الطيران الإيطالي، بيد أن مكمن الخطورة في مثل هذه الرحلات أنها غالبا ما تنتهي بالموت، وتصبح أعماق البحرهي المقابرالجماعية للمعذبين في الأرض.

ومع هذا يختار الحالمون بكسرة الخبز أن يقامروا بأعمارهم مع القدر، وقبل أن تدور عليهم الدائرة كالطواويس، تجدهم يضحكون ويمرحون كالأبقارالهائجة، والتي تمشي نحو أعتاب المذبح الآلى للذبح معصوبة العينين، أو يرقصون رقصة الموت الأخيرة على هدير الأمواج الهائجة، ومن فرط الأمل المزيف يستبعدون فكرة الفشل، الغريب أنك تجدهم قادمين نحو المغامرة يقاتلون الخوف بالوهم.

كانت الرحلة المشئومة فوق سفينة من سفن الصيد البالية، والتي أصبحت لا تصلح للصيد الحديث، فاشتراها المهربون لتعمل في قوافل التهريب البشرية نحو إيطاليا، تحركت السفينة يقلها نحو مئتين من المهاجرين، وكان بجوار "غريب" أسرة بائسة الحال من دولة "مالي" الصحراوية، الزوج كان ذا بشرة قمحية فاتحة، من عرب الطوارق، أما الزوجة فهي إفريقية شديدة السواد ذات

عيون خضراء، وملامحها تفور بالأنوثة والبهاء، رغم جفاف جلدها من شدة القحط، وترقد على حجرها صغيرة ذات ربيعين، تعبث بشعر أمها المفتول كما الحبال، كان وجه الطفلة"هند" يشع بالألم والجمال، وتقاطيعها كملامح أمها الساحرة، بيد أنها هزيلة ويكاد عظمها أن يطفو فوق الجلد من شدة الفقر، وسوء التغذية، كان البؤس سمة بارزة على جبينها، وعلى ما يبدو كانت مرارة الحرمان تدق كبد الصغيرة بمطارق القسوة الصخرية فيخرج أنين الجوع منها كحشرجة المحتضر.

وبعد سويعات وفي عمق الليل البهيم، بدأ الجوع يتسلل نحو بعض الركاب فوق ظهرالسفينة، فأخرجوا ما معهم من طعام، فقلدهم الباقون بالإيحاء، وبدأوا في تناول الطعام، كانت الإضاءة خافتة، ومرة أخرى وقعت عين"غريب"على الأسرة "المالية"، وقد دفعه الفضول إلى التلصص عليها، فوجد أن كل ثروتهم رغيف خبز يابس أخرجته المرأة من الحقيبة، ثم كسرته إلى نصفين، ودست النصف الأول تدخره للوجبة القادمة، أما النصف الآخر فقسمته على ثلاثتهم، أمسكت الطفلة الصغيرة لقمتها تمصها فهي لا تستطيع قطمها، لأنأسنانها لا تقوى على طحن الخبز القديد.

انشق قلب الفتى حزنًا على الصغيرة، فمثلها في بلاد الشمال الغنية يمرحون ويلعبون ويأكلون ما لذ وطاب، حبس دموع الحسرة في قلبه؛ حتى لا تنتشر المرارة فوق الهواء فتفسده، على فوره أخرج "غريب"من حقيبته خبزًا طريًا وجبنا وبعض العصائر المحفوظة ووضعها أمام الأسرة، رفض الأب في البداية تعففًا، بيد أن "غريب" لم يمهله أن يرفض بأن دس في يد الطفلة قطعة خبز طرية فالتهمتها لفورها من شدة الجوع، فقطع بذلك كل سُبل المكابرة على الرجل، وتدفق عبق الامتنان من العيون المقتولة بالحرمان كالسيل يشكرالفتى على حسن كرمه.

وبعد أن امتلأت البطون الخاوية، انفرجت الأسارير المغلفة بالشقاء، فقد تذوقت الأسرة البائسة طعم الشبع لأول مرة منذ بضعة شهور، فقد كانت كل وجبة من الوجبات السابقة مكونة من كسرة خبز وشربة ماء، أما الساعة فقد

أكلوا طعامًا شهيًا، وكان سبب هذا التقتير أنهم يدخرون من الفتات ما يكفي لأجرة الهرب من لهيب الصحراء نحو رغد الشمال.

وفي غمرة من المشاعر الدافئة؛ توطدت العلاقة بينهم، وبين الفتى خلال سويعات قليلة فوق السفينة، فأصبح كأنه واحد منهم، وصعدت ابتسامة الشبع فوق وجه الصغيرة "هند" تطفئ لوعة الحرمان، وانطلقت دفقات من المرح فوق شفتيها، فصارت تداعب الدنيا، وتضحك بملء فيها، فتزرع السعادة زرعًا فوق الدجى، فيكاد الرضا أن يكسي وجه الليل الحزين، وعندما لمس الحنان القلب الأخضر، رفرفت أجنحة الأمل تعانق البراءة؛ وراحت الطفلة تلعب مع "غريب" فنثرت طهر الطفولة فوق أمواج البحر الغادرة.

كانت الهواجس تطارد العقول من فينة لأخرى، وكان التساؤل هل سينجوموكب الحائرين من الغرق؟ أم سيلحق بقوائم الضحايا وفد جديد من الهالكين، وإذا نجو هل سينجحون في دخول أوروبا والعيش فيها بسلام؟

ضربت الأفكارالمغموسة في الحزن رأس الفتى، وأصبح كغيره متوجسًا، وخائفًا من غدر البحر متى زمجر، فالركب من حوله على تباين أوطانهم يجمع بينهم خيط رفيع من الأمل، وتوحدهم وحدة المصير.

وجرّاء المشقة في السفر غلب النعاس أعين الكثيرين، فنام من نام، وبقي قليلهم ينتظر سلامة الوصول، ومع تباشير الصباح، غطت خيوط الشروق الأولى أضواء المصابيح الكهربائية على الشاطئ الشمالي للجزيرة، وأصبحت على بعد ثلاثة كيلو مترات تقريبًا، وعلى حين غرة انطفأت البهجة بصراخ حاد يتصاعد من غرفة القيادة، عندما اشتعلت نارفي محرك الدفع ثنائي الشوط، بسبب القصور في إجراءات السلامة والصحة المهنية، وانتقلت النار إلى خزانات الوقود، ثم إلى ىسطح السفينة، وراحت تأكل كل ما هو قابل للاشتعال، ولم تستطع أطقم الملاحة الهزيلة مكافحة الحريق جرَاء تلف أجهزة الإطفاء، فتأكد للجميع أن الموت قادم لا محالة فهرول الركاب نحو أطواق النجاة التي تستعمل في حالات الطواريء، وكانت لا تكفي سوى نصف الركاب، فدارت بينهم معارك

حامية الوطيس من أجل الفوز بسترة للنجاة، فأخذ الركاب يتصارعون على ظهر السفينة، ويخطفون من بعضهم البعض سترات النجاة، ورجحت كفة الأقوياء أحيانا، بيد أن الضعفاء سرت في أوصالهم قوة خارقة جرّاء التعلق بالحياة فماتت أيديهم قابضة على أطواق النجاة، وبسبب سخونة المشاجرة، لم يتمكن الكثيرون منهم من ارتداء السترة فسقطوا في البحر غرقا، أو ساقتهم النيران بلهيبها نحو القفز في البحر؛ ليطفئوا الحريق الذي اشتعل في جلودهم بالماء، فقضوا نحبهم حرقًا وغرقًا.

شلّ هول المفاجأة عقل "غريب" عن الحركة، وعاد شبح الموت يلاحقه من جديد، ولايدري ماذا يفعل، ولحظة تمايل السفينة على جانبها الأيمن شاهد الأسرة المالية تسقط في البحر والأم تصرخ :

- الأم: أين هند؟ ابنتي أين أنتِ ؟ أين ابنتي؟

وظلت هكذا لبضع لحظات قبل أن تغوص في الماء، لتلحق بزوجها إلى قاع البحر، في الجانب الآخر كانت النيران تشتعل في ثياب "هند"فوق شطر السفينة الذي ما زال يغُص ببطء في الماء، كانت تصرخ، وهي معلقة من ملابسها في خطاف حديدي، هرول نحوها "غريب" كما الصقر يصارع الموت، وجذبها فوجد جلبابها قد ذاب من النار، فاشتعلت في طرف قميصه، حضن الطفلة يصرخ معها من آلام الحريق ليقفز بها في البحر، فأطفأت المياه النار، بيد أن ملوحة الماء اشعلت آلام الجلود الذائبة في ساق الصغيرة ويد الفتى.

ظل هكذا يتألم لبضع دقائق، ولا يعلم ماذا يفعل، كان قابضًا على الصغيرة بشدة خوفًا من أن تفلت منه، فتهوي في قاع البحر السحيق الذي يمتد عمقه إلى ما يقرب من أربعة كيلو مترات، كان يدرك أنها لو سقطت منه لن تعود للحياة مرة أخرى، بعد طول تفكير تخلص من ملابسه حتى لا تعرقله، ووضع القميص في فمه، أما البنطال فقد خلعه ووضع هند فوق ظهره، وربطها به بصعوبة بالغة، فأصبحت رأسها فوق رقبته، ثم لف القميص حول ساقيها من الخلف وربطه حول جسده، كانت شدة الرباط تجعل حرف القماش يغوص

في جلدها المهترئ فتصرخ، ولكن خوفه عليها من الغرق جعله يحكم الرباط، واتجه يعوم نحو جزيرة "لامبيدوز" لعله يدرك الحياة.

ظل يسبح دون أن يدري ما هو مصيره، حتى أصابه الإعياء بعد ساعة من العوم، شعر بأنه فقد القدرة على تحريك ذراعه المحترقة، وتراجعت قدرته على المناورة، فلا يستطيع الدوران للعوم على ظهره للراحة والتقاط الأنفاس ؛لأنه يحمل الصغيرة فوق ظهره، كان عليه أن يتخلص منها كي ينجو، ويصل نحو الشاطئ، وإلا غرقا معًا، والمنطق يقتضي إنقاذ ما يمكن إنقاذه، والموت معها حماقة، والتخلص منها نذالة، بات الفتى في عرض البحر لا يدري ماذا يفعل، وكان مقسومًا بين شهامة لا تجدي، ورحمة لا تفدي، تُرى بماذا يقرر؟ وسط هذا الانهيار، ولا أحد يتوقع ما هو القادم.

٦- النجاة

في هذه الليلة الطويلة، كاد الفجر أن يطلع، وكادت عقارب الساعة أن تقترب من الرابعة صباحًا، أما "غريب"مازل نائمًا فوق سريره نومًا عميقًا، وذلك بسبب آثار الحقن المخدرة التي أخذها عقب الحادثة، بيد أنه مازال يعانق بعقله وميض الذكريات التي لا تفارقه، كان يسترجع مرارة الماضي، كانت أمه "حميدة" تجلس بجواره ترقبه بقلبها خوفًا عليه، وتمسح بيدها حبات العرق التي تعلو فوق جبينه؛ جرّاء معاناته، فقد شق وجدها ما يتمتم به من كلمات غير مفهومة، تارة يصرخ، وتارة ينادي كأنه يخطب في جموع حاشدة، وتارة يهتف باسم "هند"، وكان يكرر مايلي:

- النجدة ياقوم.

- لا تخافي يا هند لن أتركك للموت أبدًا.

تعجبت الأم من قوله، وصراخه، لم تكن تعلم أنه يسترجع الماضي الكئيب، فقد ظنت أن ما يتفوه به مجرد أضغاث أحلام، أو كوابيس شريرة، من آثار جروحه، فظلت بجواره قلقة تدعو له بالشفاء، إلى أن غلبها النعاس فتمددت فوق السجادة على أرضية الغرفة، من كثرة الوهن.

ومازال الفتى بالقرب منها يتصبب عرقًا، تخرج منه أصوات أشبه بصوت حشرجة المحتضر، الذي يئن من سكرات الموت، كان يعيش نفس اللحظات المريرة التي مر بها في عرض البحر منذ سنوات، كأنه مازال يعبر المتوسط

نحو إيطاليا لتوه، كانت قسوة المواقف محفورة في أعماقه حفرًا، قلبه يدق كما ضربات المطارق فوق أقراص النحاس الكبيرة، كان يتذكر بكل جوارحه مأساة رحلته، أثناء السفر.

كان يسترجع الذكرى ممزوجة بآلام الحدث، فكان يسمع صوت صرخات الغرقى يستغيثون من خلفه؛ للخلاص من الموت، دون مغيث، كانت عينه وهو نائم تفيض بالدموع، كأنه ينعي بروحه كل الضحايا من بني البشر، وهم معلقون بين الحياة والموت، ويبكي بقلبه فراق أقرانه في رحلة العذاب، بعد أن ساقتهم نحو حافة الهاوية أوهام لأمال كاذبة، بالأمس ركب معهم فوق الأهوال، لعله ينتزع الربيع من رحم الفناء.

وحتى هذه اللحظة، مازال يسمع أصوات الأمواج المتلاطمة في أذنه، يتذكر بطش البحر به، وهو يحمل الصغيرة "هند" فوق ظهره، وقد استقر على عدم الخلاص منها لينجو بنفسه، مهما حدث، كان وقتها يطفو في عرض البحر لا يدري ماذا يفعل، فالحروق التي كانت بيده تقترب من الدرجة الثانية، والتي بجسد الصغيرة، ربما تجاوزتها، والماء المالح ينخر في الجلد، ويخترق الفقاقيع، نظر عن يمينه فوجد ربوة صخرية بارزة في وسط الماء، على بعد عدة أمتار منه، بذل كل ما في وسعه حتى وصلها وصعد فوقها، ونام على وجهه فوق بعض الصخور المدببة، فمزق بعضها جلده، بيد أن شدة الإرهاق جعلته لا يشعر بالألم، بعد أن التقط أنفاسه، نهض فوجد الشمس قد أشرقت تخبر الدنيا بقدوم النهار الفصيح، نظر على بعد مئات الأمتار، فوجد قاربًا مطاطيًا لحرس السواحل، ظل يصرخ طالبًا للنجدة، فتحرك نحوه فورًا، أبلغهم بحادثة غرق السفينة، على الفور تم بث نداء الاستغاثة عبر أجهزة الاتصالات، فامتلأ البحر بسفن وقوارب الإنقاذ، بعدها فقد الوعي تمامًا، ولم يدر بما يدور حوله، وتم نقله هو و"هند"إلى مستشفى جزيرة "لامبيدوز"، لإسعافهما، وبعدها إلى مستشفى جزيرة صقلية بواسطة طائرة"هليكوبتر"حيث قسم الحروق، وقرر الأطباء أن علاجهما سوف يستغرق أكثر من عدة أسابيع.

هزت الحادثة الرأي العام بإيطاليا، وتناقلتها صحف أوروبا، وتصدرت

صور "غريب" وهو يحمل "هند"على ظهره كبرى المجلات، والصحف، ونظرًا لشهامته، أصبح محط أنظار جمعيات حقوق الإنسان، ومنظمات رعاية الطفولة، وعقدت معه الكثير من اللقاءات التليفزيونية، وخلال فترة العلاج بالمستشفى تعلقت"هند" بـ "بغريب"، فقد أمضت معه شهرًا آخر، وبعد العلاج من آثارالحروق تم إجراء جراحة التجميل لهما، كانت"هند"تبكي إذا غادر جوارها، كأنه أمها وأبوها، وقد عاشت هي في قلبه ابنة محبوبة. وأثناء فترة العلاج، وتحت ظرف إنساني بالغ الثراء، عرضت عدة جمعيات خيرية لرعاية الأيتام، استضافة "هند"، بيد أن ارتباطها وجدانيًا بغريب كان مشكلة كبرى، ولحل المشكلة اقترحت جمعية "الطفولة البريئة" البحث عن أم بديلة على أن يظل غريب معهما حتى تتأقلم الصغيرة عليها، ثم يتم ترحيله بعدها.

تقدمت للقيام بذلك الدور مدام "ماري" إخصائية الطب النفسي بروما، على أن تتبناها لتربيها معها بمنزلها، وقد وافقت جمعية"الطفولةالبريئة"على ذلك العرض، نظرًا لأنها أرملة حسنة السمعة، ولم تنجب، ولائقة صحيًا، فهي في سن الأربعين، وقادرة على رعايتها، وسوف تعاملها كأم حقيقة، ومن ثم اتفقت الجمعية مع "غريب" بأن يصحبهما بعضًا من الوقت، وذلك بالتنسيق مع الحكومة الإيطالية للسماح له بالتواجد شهرين لذات الغرض، وبالإقامة مع مدام"ماري"في شقتها، حتى تحدث الألفة بينها وبين الصغيرة، بيد أن "غريب" رفض الأجر، وقرر أن يمكث هذه المدة معهما حبًا في مواساة الطفلة المكلومة في والديها.

ازداد إعجاب مدام"ماري" بالفتى المصري، فهو رغم ظروفه المادية الصعبة رفض الحصول على أجر مقابل المشاركة في رعاية "هند"، كانت "ماري" رقيقة تعشق الجوانب الإنسانية في العلاقات البشرية، وتقدس القيم التي تحض على المساواة بين الجميع، كانت مؤمنة بالمبادئ الرفيعة، ومهتمة بنشر ثقافة السلام من خلال مقالاتها الصحفية بالكثير من الجرائد الكبرى، وتقف بقلمها خلف سياسة دعم الدول الفقيرة دون أغراض سياسية، كانت ناجحة في عملها، ووضعها المادي جيد، بعد أن ورثت ثروة طائلة عن زوجها.

في اليوم الأول من اصطحاب "غريب"إلى شقتها الفاخرة، حددت له غرفة كبيرة، وأبقت "هند" في غرفة مستقلة يصطحبها الاثنان تارة، وأحدهما تارة أخرى، ولكنها عندما دخلت معه في أول حوار حقيقي أبدت دهشتها من مغامرة السفر قائلة له:

- ماري:المدهش أنه رغم إنسانيتك ونبلك أنك تخالف القانون، أنت تعلم أن الهجرة غير الشرعية انتهاك للقانون.

- غريب: أعلم ذلك، وربما أخطات، ولكن عليك أن تعلمي أن الإنسانية فوق القانون، لقد جئت هنا أغامر بروحي فرارًا من اليأس، لو كنت في موقفي لعرفت حجم معاناتي، وآلام الشباب أمثالي.

- ماري: لا عليك، سوف أساعدك في الحصول على البقاء في أوروبا.

- غريب: كيف؟

- ماري: سوف أتزوجك حتى تنتهي إجراءات الجنسية.

- غريب: ولكني مرتبط بحبيبة، ولا أريد غيرها.

-ماري: لا تقلق الزواج سيكون صوريًا، فقط من أجل استخراج شهادة الجنسية

- الإيطالية، وبعدها سوف يتم الطلاق، وسوف أفعل ذلك إكراماً لإنسانيك.

-غريب: ولكني أريد الجنسية الهولندية.

- ماري:قلت لك لا تقلق لأن الحصول على الجنسية الإيطالية سوف يمنحك

الحق في العمل في أي دولة من دول الاتحاد الأوروبي، ومنها هولندا.

شعرت "ماري" ببعض من الغيرة، جراء افتقادها لحبيب بمثل هذا الوفاء، ولكنها مسحت على رأسه برفق، لشدة صراحته ووضوحه، فقد كان من الممكن تلبية طلبها للهروب من الترحيل الجبري، دون إفصاح عن حقيقة مشاعره، مجاملة أو خداعًا، وخاصة أن الشرطة سوف ترحله إلى مصر بعد انتهاء الشهرين.

وبعدها بدأ السعي في إجراءات الزواج، والحصول علي الجنسية الإيطالية، وذلك بالتزامن مع برنامج ترويض الصغيرة حتى تتعود على أمها الجديدة، بدقة متناهية، مر الأسبوع الأول كما خطط له، وأثمرت البرامج التربوية في التآثير على"هند" فتعودت على الأم الجديدة تدريجيا، والتي كانت تتصرف برقة، وحنان دون تكلف.

كانت مدام "ماري" ذات ملامح رقيقة، شعرها أصفر غير طويل، لأنها تقصه باستمرار، عيونها زرقاء جميلة، متوسطة الطول، وممتلئة قليلا، جسدها مغر للرجال، وكعادات الغربيين كانت تحلل من ثيابها، وتتحرك بالشقة بملابسها الداخلية تارة، وبدونها تارة أخرى، دون أن تقصد استدراج الفتى نحوها، لاحظت من الوهلة الأولي حمرة الخجل تلون وجهه؛ كلما مرت متحررة من ثيابها بجواره، هذا السلوك كان محل اهتمامها، ورغمًا عنها بدأت تدريجيًا تفكر في أن تستقر بين أحضان الفتى.

ومع الأيام، وكلما ازداد خجله منها، تزداد رغبتها فيه، وعلى عكس ما ظنت، وجدت نفسها تفكر فيه رغمًا عنها، فدفعها الشوق نحوه لاحقًا إلى تعمد إلهاب مشاعره، وذلك بالتحرك أمامه عن عمد بطرق مثيرة كعادة حواء عندما تحب، وتمكنت بأنوثتها الطاغية من فك قيود ذلك الوحش المقيد في صدره، وفي ذات مساء وهي تستدعيه بأنثوتها الطاغية، انقض عليها يقبلها، فذهبت تعلمه ما كان يجهله في عالم المرأة، ومن فرط متعتها معه، أخذت أجازة من عملها أسبوعين لتتفرغ لقطف ثمار هذا العسل الذي يتدفق من ثغر الفتى المصري.

طافت به يزوران معظم المعالم السياحية في إيطاليا أحبت فيه دفء الشرق كان حنونًا، ذكيا، ذا خلق، وهي كانت مولعة بالحضارة المصرية القديمة من ذي قبل، تعلقت به، وكأنها رأت فيه جلال الفراعنة، وسحر ملوكها العظماء، كثيراً ما كانت ترغب في زيارة مصر، ولكن ظروف العمل كانت تدفعها نحو التأجيل مرة تلو أخرى.

قضي "غريب"معها فترة جميلة رقيقة، اكتشف كلِ منهما مدى صفاء روح الآخر، فتوطدت العلاقة نحو منحى إنساني نادر، بيد أن "ماري"مع الأيام ذابت فيه عشقًا، ومرت اللحظات السعيدة عليها بسرعة البرق، ولم تشعر بها حتى أخبرها "غريب" بأنه سوف يرحل إلى هولندا، لقرب مرور الشهرين، فشعرت بالحزن لقرب فراقه.

وفي نهاية الأسبوع الأخير معها، وقبيل الرحيل بيومين لاحظ "غريب"عليها كثرة الإغماءات، والتقيئ، ارتبك قليلاً خوفًا من أن تكون قد حملت منه، وخاصة بعد أن أخبرته أن الدورة الشهرية قد تأخرت عن موعدها ثلاثة أسابيع، ولكنها طمأنته

بأنها لا تنجب، وأن الموضوع لا يعدو كونه وعكة صحية، هدأت روحه؛ لأن هذا الأمر كان سيربك كل حساباته.

حان وقت الرحيل، وبدأ"غريب" يجمع ملابسه، وقلبه يكاد ينشطر، من فراق الصغيرة، فحبه لـ"هند" ملك فؤاده، أما "ماري" فقد حاولت إثناءه عن السفر للبقاء في إيطاليا، ووعدته بتدبير عمل مناسب له في مصنعها الذي ورثته عن زوجها الأول، ولكنه أصر على الرحيل، وعندما وجدها قد تعلقت به تعلقًا شديدًا، عاد يذكرها بقصة حبه، وبالعهد الذي قطعه على نفسه، بالعودة لحبيبته "رجاء"التي تنتظره في مصر، معللاً أنا استمراره معها خيانة لهذا الحب.

انطلقت تسأله بلهفة عن "رجاء"، وعن حبه، مبهورة ببعض طباع الشرق، وخاصة عاطفة الحب والعلاقات الاجتماعية بين الأسر وذويها، كان يجيبها بكلام كله رقة، وعذوبة، فتمنت أن يكون لها حظًا من حياة الشرق.

كانت "ماري"في الفترة المنصرمة تشعر بأن الفتى معها بجسده فقط، وبعد كل لقاء يجمعهما، كان يحني رأسه خجلا من شيئ ما، لم تستطع تفسير ذلك في حينه، ولم تكن تدري سببًا لهذا الحاجز أثناء اللقاءات الملتهبة، شعرت بأنها كانت بالنسبة له مجرد دمية جنسية يعبث بها، لتحقيق متعة لحظية، ورغم

أنها منحته مشاعرها بصدق، لم يمنحها سوى جسده، أدركت أن "رجاء" كانت هي الحائل بينها وبين قلبه.

وبعد أن حسم أمـره، وقبيل الرحيل قبّل"هند" عدة قبلات مصحوبة بدموع الفراق، وودع "ماري"بكلمات رقيقة، وامتنان، وسلمها توكيل رسمي للقيام بإجراءات الطلاق أينما مرت الفترة القانونية للحصول على الجنسية، وخرج مسرعًا حتى لا يضعف أمامها، تركها مبعثرة الجوارح، تلملم شتات نفسها من عالم الهوى دون جدوى، فانحنت تقبل الصغيرة "هند" وتحتضنها، وكأنها تشكو لها مرارة الفراق، لعلها تجد فيها السلوى، ولكن هيهات للسلوى أن تطأ القلوب الهائمة، ولولا أنها علمت شدة حبه لغيرها، ووفائه لهذا الحب، ما تركته يخرج من حياتها إلى الأبد.

ذهب "غريب"إلى المطار، واستقل الطائرة إلى هولندا، قاصدًا صديقه "علاءبكر" الذي استقبله في المطار عقب وصوله، واصطحبه معه إلى المزرعة ليعمل معه.

بعد يومين استلم العمل، وبعد شهر بدأ يبحث عن عمل إضافي، فقد كانت وردية العمل ثمان ساعات، وهو يرىد أن يعمل وردية أخرى، فالتحق للعمل وردية مسائية بمصنع للجبن بجوار المزرعة، وبقي طوال خمس سنوات على هذا الحال، وقد منحه هذا العمل فرصة لجمع المزيد من المال الذي جاء من أجل جمعه، علاوة على إنفاق الوقت في العمل؛ للإفلات من أحضان النساء، وللوفاء بعهد الحب مع حبيبته "رجاء" بمصر، وكان يلتقي بها في منتصف ليل السبت من كل أسبوع، تارة يحدثها على الإنترنت وتارة يكتب لها الرسائل النصية على الفيس بوك.

٧- العشق والتخاطر

رغم ما يعتري الفتى في نومه من هواجس مريرة، وذكريات شديدة الألم، جاءت ذكري حبيبته "رجاء" لتطفئ حرارة الماضي، ووهج الأوجاع في كبده، العجيب أن ذكراها عندما وردت على باله، ارتسمت البسمة تعلو شفتيه وهو نائم، كانت كالبلسم فوق جراحه، تذكر أول رسائلها على صفحته "بالفيس بوك" فقد اتفقا قبل السفرعلى تدشين صفحتىن، الأولي له باسم "ابن النيل"، والثانية لها، تحمل اسم "بنت النيل"، وذلك خشية اختراق الحساب أو سرقته، وحفاظًا على سرية العلاقة الطاهرة.

كانت أنامل يده تتحرك وحدها وهو نائم طريح الفراش، كأنها تنقر فوق لوحة المفاتيح على جهاز "الكمبيوتر"، لتفتح صفحة "الفيس بوك" وارتسمت حالة من النشوة في لب قلبه كما كان يعيشها ماضيا، ونقلت حلاوة الذكرى إلى الوقت الحالي، كان يرفع رأسه، وهو نائم كما لو كان يقرأ كلمات الرسالة من فوق شاشة الكمبيوتر، ما أعذب كلمات المحبين عندما تكون نابعة من القلب! تذكر الرسالة الأولى بكل تفاصيلها وكانت كالتالي وباسم رجاء المستعار:

- بنت النيل: حبيبي الحاضر في قلبي وجوارحي بروحه، والغائب عن عيني بجسده، منذ سفرك من عدة شهور، وأنا أنتظر الرسالة الأولى منك بلا جدوى، كان عهدنا أن ترسل أنت الرسالة الأولى عندما تستقر لك الأمور، ولكن شوقي نحو معرفة أخبارك، وذوبان روحي فيك، وقلقي عليك، كل ذلك جعلني أكسر هذا الاتفاق، فلم أعد قادرة على غياب أخبارك أكثر من ذلك، ليتني أملك الكون، حتى أهبه لك، مع نفسي الملهوفة عليك، فمازلت أعيش في حبك.

قلبي يرى أنك أنت الحياة، وأتمنى أن أهجرالأرض إليك، كي أسكن بين أحلامك البيضاء، لأعيش فوق عرش مملكة الحب المخضب بالحنان، حبيبي أخبرك بأني مازلت أعيش بين عينيك، وأرجوك أن تمنحني رمشين من رموشك أجدف بهما في بحار العشق العميقة، حتى لا أفنى فيك حتى التلاشي.

أرجوك أن ترد، فقد أضناني الشوق نحوك، حتى أصابني الهزال، يكاد أن يقتلني في اليوم ألف مرة، خوفا عليك من أهوال الصحراء، ورعبًا من غدر البحر، إلا أن قلبي يشعر بأنفاسك فوق وجه الأرض، تارة تكون باردة، وتارة ملتهبة وممزوجة بالموت، وتارة مغروسة في خاصرة النساء، أعلم أنك تسبح في مجتمع التحرر الكبير، بيد أن غيرتي عليك لا قيمة لها أمام نجاتك من كل مكروه، أريد أن أسمع صوتك؛ حتى تعود الروح التي طارت تبحث عنك في كل مكان، أريدها أن تعود بك بين ضلوعي، كي أنام فوق بساط الحب الفسيح.

وفي نفس اللحظة التي يتذكر فيها "غريب" حبيبته وهو نائم، كانت"رجاء" في منزلها تسترق النظر نحو غرفته لعلها تجد ما يطمئنها عليه، ثم تعود بالنظرنحو عقارب الساعة الكبيرة المعلقة بغرفتها، والتي تشير إلي الرابعة والنصف صباحًا، كانت تتذكر وهي مستيقظة كل ما مر بينها وبين "غريب" منذ سنوات، وتنتظر الصباح بفارغ الصبر حتى تذهب إليه، وتفكرفيه في ذات اللحظة التي كان يتذكرها، وهو نائم، كانت تستعيد معه الرسائل التي كتبت بينهما في الماضي بالتخاطر، كأن قلباهما يتناجيان عبر الفضاء، فيخترقان كل الحواجز، فعالم المشاعر فضفاض لا تحده فواصل، ولا تعوق أبراجه أسقف، ولا جدران، فمن القلب إلى القلب رسول.

ما حمل "رجاء"على الرسالة السابقة في الماضي هو شدة القلق، فقد تحولت إلى هيكل عظمي، ودارت بها الأسرة على الأطباء، فلم يجدوا للعلة سببًا ظاهريًا، وعجزوا عن علاج الداء الحقيقي التي لم تفصح عنه لأحد، فلم تفلح أدوية فتح الشهية على حملها على التهام الطعام، ولم تنجح أدوية المقويات في العودة بالنضارة إلى بشرتها، كادت أمها "سعاد" أن تجن، فقد تبدل الحال إلى الأسوأ، حتى سقطت الفتاة على الفراش كأنها سوف تستقبل الموت في التو واللحظة،

وتوقفت عن الشراب، والطعام، والـدواء، فحضر الطبيب كي يقوم بتركيب المحاليل في عروقها، حتى لا تموت، فوجد العروق قد هربت من جسدها، وبصعوبة قام بتوصيلها، وظل بجوارها حتى نامت، وفردت الأم فوقها غطاءً خفيفًا، وانصرفت تتمتم بالدعاء، راجية لها الشفاء.

كانت الفتاة وقتها قاب قوسين أو أدنى من الموت قلقًا على حبيبها، ورغم إعيائها الشديد، نهضت مع السحر قرب الخامسة صباحًا، واتجهت نحو جهاز "الكمبيوتر"، وحررت رسالتها الأولى بصعوبة بالغة، لعلها تصله، فقد شعرت بأنه قريب منها، وأن رائحته تملأ أرجاء الغرفة، وكانت المفاجأة أن "غريب" هو الآخر في اللحظة ذاتها كان يسعى ليعد رسالته الأولى، بيد أن رسالة الفتاة سبقت رسالته، ورد عليها بالسلام، ثم بدأ يخط الرد، فنهضت،والنضارة، والبهجة تعودان لوجهها، فتبسمت للحياة، وتوجهت نحو نافذة الغرفة تفتحها؛ لتفسح للهواء العليل بالدخول، فمسحت نسمات الفجر أوجاعها، فتساقط الهم من روحها وهي تقرأ رد "غريب"على صفحات "الفيس بوك" في صفحته التي تحمل اسم ابن النيل:

- ابن النيل:حبيبتي الغالية، أعتذر عن التأخر في الكتابة إليكِ، فقد مررت بأهوال كثيرة، كلها تصغر أمام عيني من أجلك، وسوف أقصها عليك لاحقًا، حتى لا أفسد فرحتى بلقائك للمرة الأولى منذ السفر.

حبيبتي اشتقت إليكِ،كما يشتاق الزرع إلى الماء، وفرحت برسالتك كما يفرح الربيع بأكاليل الورود فوق أيامه، تجذبني كل ذكرى مرت بيننا، فأرتشف منها رحيق الحب الممزوج بأغصان الذكريات، فحلاوة اللحظات التي عشتها معك، تساوي أعمار أقوام لم تع نبل تلك العاطفة، فمازلت حتى الآن غارقًا في عينيكِ، ولا أود السباحة في غيرهما، تمنيت أن نكون معا، ندوس بأقدامنا فوق الأشواك فتتحول إلى ورود يانعة، أريجها يفوح بالعطور فوق الزمان، أشعر بأن الحياة معك سوف تكون كلها هدوء،وسكينة، ورضا.

حبيبتي في غيابك عني أشعر بمحنة شديدة، ورغمًا عني أجد الأشواق

تهزقلبي ليل نهار، فأنا المشتاق الجالس تحت أوتار الهوى ألتمس الحنان من ثغرك العذب البعيد، أتوه كما الفراش الحائر، يتحسس الضوء من نور وجهك عبرآلاف الأميال، فأرى وجهك أمام عيني يشبه وجه الملاك القادم من عالم الطهر البديع، فأصعد إليكِ فوق جناح الأمل، واعلمي أن قلبي يحلق نحوك في فضاء العاشقين، فأجدني أغوص بمشاعري في أعماق الغرام، حبيبتي أقسم أني أتلحف بك من برد الغربة القارص، فاستشعر روحك تغطيني بدفء الحنان، أراك تسكنين بين قلبي وشرياني، وتخترقين كل ذرة بجسدي.

فقط حبيبتي أسألك السماح؛ إذا ضللت يومًا، وأخطأت رغمًا عني، وإن قصرت في إتمام عهد الوفاء نحوك، لن أكررها، ولو غلبني الضعف ذات مرة، ستعيدني قوة الحب نحوك، كي أكمل الطريق نحو قلبك البريء.

كانت الرسالة بمثابة العلاج الذي طال انتظاره، وبرأت السقيمة بالهوى من ألمها، بعد أن اطمأنت أنه حي يرزق، وبخير.

كان سبب تأخر غريب في الكتابة إليها، هو خجله من نفسه، جرّاء علاقته بمدام "ماري"، فلم يجرؤعلى محادثتها، فقد ظل لمدة شهرين على هذا الحال، كلما فتح الحساب على صفحته بـ "الفيس بوك" ليكتب لها، شعر أن يده مشلولة، وعقله متيبس، وذلك بسبب سقوطه في حبائل امرأة أخرى، لم يتركه وخز الضمير طوال هذه الفترة، كانت سياط الندم تهوي فوق عقله، فهو يحبها حبًا كبيرًا، وخيانة عهد الهوى هي كل عار المحبين.

ولذا بات يفكر في الاعتراف لها بخطيئته لعل باله يرتاح، كان يخشى إذا اعترف أن يفقدها للأبد، ظل هكذا منقسماً على نفسه لا يكلمها بعد خطابه الأول لمدة شهر، ولم يفتح حسابه على "الفيس بوك" خشية البوح.

عدم التواصل بالرسائل أقلق "رجاء"، وظنت أنه في مأزق جديد، فربما حدث له مكروه، فقد بعثت له ثلاث رسائل لم يرد عليها، إلى أن دفعه الشوق لأخبارها ففتح حسابه على"الفيس بوك" فوجد رسائلها وبها من القلق ما يزعجه، وبخاصة الرسالة الثالثة التي كانت كالتالي:

بنت النيل: ماذا حل بك يا حبيبي، هذه ثالث رسالة لم تردعليها منذ أن كتبت إلىّ في الشهر الماضي، أنا أعيش بين الظنون مقتولة بالخوف عليك، لا يقترب النوم من جفني، وأشعر بأن وسادتي كأنما غُزلت من الشوك، فوق قلبي غمة ثقيلة كأن الجبال العاتية أطبقت فوق روحي، أرجوك أن ترد علىّ، إن كنت بخير، فرغمًا عني فقدت الشهية نحوالحياة من فرط القلق، وشحب لوني حتى أن أسرتي قد ظنت أني مصابة بمرض عضال، فطافت بي على الأطباء مرة أخرى دون جدوى، وأنا أستحي البوح بأنك أنت الطبيب الذي بيده علاج السقام التي ألمت بروحي، أرجوك أن ترحم حبي، وأن تطفئ نار القلق عليك، بك.

لم يكن "غريب"يملك أمام هذه الرسالة سوى الرد عليها، متوسمًا في الصدق أن ينجيه، أفرغ حمله الثقيل على رسائل "الماسنجر" للخلاص من وخز الضمير، فكتب لها هذه الرسالة مساء السبت في أجازته الأسبوعية:

ابن النيل: حبيبتي لم يمنعني عنك سوى محنة ألمت بي، وأخشى البوح بها فتنصرفي عني، ظنًا بأنني قد خنت عهد الهوى، وما أنا بالخائن، وإن زلت قدمي، لقد مرت علي فترة كنت فيها مسلوب الإرادة، فبعد أن أفلت بعمري من الموت مرتين، جمعني القدر بامرأة إيطالية اسمها "ماري" قضيت معها فترة، وتزوجتها للحصول على الجنسية فقط، على أن يكون الزواج صوريًا، ومع الوقت أغواني الهوى بها، وأقمت معها علاقة كاملة، وقد أفقت من هفوتي محطمًا، وخاصة بعدما ظننت أنها حامل، بسبب ظهور بعض أعراض الحمل عليها، ولكنها أخبرتي أنها لا تنجب، فحمدت الله على ذلك، لأني لا أرغب في أولاد إلّا منك.

حبيبتي رغم أنه لا يوجد سبب يدفعني أن أعري به نفسي أمامك، وكان من الممكن عدم البوح بتلك الخطيئة؛ لأني تركت "ماري" وسافرت إلى هولندا، على أن تقوم هي بإجراءات الطلاق لاحقًا كما اتفقنا، حبيبتي كان من المستحيل أن تعلمي بما حدث إلّا مني، ولكن شبح الخيانة كان يحاصرني، فأشعر بضآلتي؛ لأني قد حنثت بعهد الحب عندما عرفت غيرك.

بسبب جرمي أصابني الوهن بسبب صراع دار بين ضميرى ونفسي، فأجدني تارة تنهمر الدموع مني فلا تغسل خطيئتي، وتارة تكاد رأسي أن تنقسم من كثرة الألم، وفي العمل كادت يدي أن تبتر وأنا أقوم بتشغيل ماكينة الإنتاج بمصنع الجبن ثلاث مرات وذلك بالوردية المسائية، وأكثر من مرة، وأنا أعبر الطريق مشتتا لا أدري بنفسي إلّا أمام شاحنة تكاد أن تسحقني، لولا أن السائق يمسك الفرامل في اللحظة الأخيرة، ولولا عناية الله لكنت في عداد الأموات بسب حدة الندم، ولم أجد خلاصًا إلّا في طلب السماح منك، على أن أعاهدك ألّا أمس امرأة غيرك مادمت حيًا، أرجوك أن تتقبلي اعتذراي، وأن يشملني منك العفو والسماح.

قرأت "رجاء" الرسالة، وقلبها يحترق بنيران الغيرة، والغضب يملأ جوارحها، فلم تكن تتوقع أن يحدث ذلك منه، ولم تستطع الرد عليه في حينها، أغلقت جهاز "الكمبيوتر" ، وتحركت تجر قدميها بصعوبة نحو "السرير" فسقطت عليه، تمددت غارقة في دموعها، تسبح في ألم فظيع، حتى أمتلأ جوفها بأوجاع الحسرة، فنهضت تسعل حتى وصلت "الحمام" تتقيء كل ما بجوفها، وعادت تنتفض، تتصبب عرقًا، فوجدت أمها بجوارها تمسك يدها، وأوصلتها حتى غرفتها، وأجلستها على السرير، وناولتها دورقًا من الماء فشربته عن آخره، ثم تمددت تغط في نوم عميق.

وبعد أن كتب "غريب"الرسالة ظل ينتظر الرد منها فلم ترد، وعرف أنها قرأتها، وقع قلبه بين قدميه، فهذا يعني أنها جد غاضبة، وربما تقطع علاقتها به، كان كالمجنون يتابع صفحتها لحظة بلحظة، فيجد علامة تبويب الرسائل مغلقة، تارة يلسعه الندم على صراحته الزائدة، وتارة يقتنع أن ما قام به صحيح، فهو يرى أن الحب الحقيقي يجب أن يبنى على الصدق، ورغم برودة الجو كان يتصبب عرقًا، كان يشعر أنه ملاحق بعار الخيانة، ويخشى أن تهجره "رجاء"إلى الأبد.

شعر بعطش شديد، فرفع زجاجة الماء نحو فمه، ولم ينزلها إلّا فارغة، كانت ضربات قلبه عالية، ويداه ترتعشان مخافة الفراق، وظل طوال الليل في أرق

إلى أن غلبه النعاس، ومع حلول الفجر، ورغم خوفه من رد حبيبته، نام نومًا ثقيلًا، لأنه أزاح هرمًا من الهموم بالبوح، كان كمن يريد بتر موطن الداء من جرحه، حتى تتعافى روحه من فيروسات الخيانة.

وفي اليوم التالي استيقظ عند الظهيرة، فهجم على جهاز الكمبيوتر لعله يجد ما يشفيه، فوجد إشارة حمراء على خانة الرسائل، ضغط على المؤشر ففتحها:

بنت النيل: قرأت رسالتك بالأمس، فوقع ما فيها على قلبي كوقع السكين على رقبة الذبيحة، فنزفت من مشاعري آلامًا سالت فوق روحي، حتى أصبحت أصرخ في نفسي بصوت مكتوم زلزل كل جوارحي، كانت الآهات تخرج من بين أنفاسي حارة مشتعلة كالنار التي لا تنطفئ مهما سُكب فوقها من ماء، وجربت لوعة حواء عندما تُذبح مشاعرها فوق فراش غريمتها، وكانت سكينك جد باردة، لاتقتل فتريح الضحية من عذاب الذبح، فلم يكن لقاؤك بـ "ماري" ليلة عابرة، كان زواجًا كاملاً، كنت مع كل سطر في رسالتك، أتخيلك معها، شعرت كأنك تستل خنجرا من غمده، لتغرسه في قلبي كلما ارتميت في أحضانها، تخيلت قبلاتك لها تسقط على قلبي كأنها لدغات العقارب تزرع السم الزعاف في صدري، ربما لم تجرب حسرة امرأة قام حبيبها بنزع النعيم من روحها، ليغرسه في أحشاء امرأة أخرى، لن أطيل عليك كثيرًا، فشجاعتك على الاعتراف رغم مرارتها أكدت لي أنك نادم، وتبتغي الخلاص من ذنبك نحوي، سوف أسامحك على أن تعاهدني على الوفاء، وألّا تكون لغيرى لحظة واحدة بعد اليوم.

ابن النيل: حبيبتي عفوك عني منحني أملًا جديدًا في الحياة، وأعاهدك على الوفاء ما دمت حيًا، فالموت عندي أهون من خيانة عهد الهوى.

وفي وقت واحد ظل الحبيبان يتذكران الماضي بكل تفاصيله، بالتخاطر،والرسائل الرقيقة، والحديث عبر مايك "الماسنجر"، فقد كانت تنقل له كل ما يدور بالقرية من أخبار وأحداث، وظل الأمر هكذا لمدة سويعات، حتى اقترب الضحا، فخرجت من الوقت الماضي إلى الحاضر قرب التاسعة صباحًا،

وهبطت من منزلها تقصد منزله، لتطمئن عليه، فقد ذهب والدها إلى عمله، وأمها مشغولة بأعمال المنزل، دقت الجرس، وصعدت دون أن تنتظر من يرد عليه، وصلت إلى غرفته، وطرقت الباب طرقتين، فإذابـ"غريب" ينهض من ثباته، يسند ظهره على شباك السرير، يهتف باسمها:

- غريب: رجاء؟ تفضلي.

- رجاء: لقد قتلني القلق عليك، ومنذ عودتك بالأمس لم أنم حتى هذه اللحظة، وكنت أتذكر كل رسائلك.

- غريب: وأنا كنت معك أعيشها لحظة بلحظة.

- رجاء: عليك أن تنتبه وأنت تقود السيارة، لا تهتم بما ينشر على"الفيس بوك" ولا تعطي للجهلاء وزنًا، أنا لن أتحمل أن يصيبك مكروه..

- غريب: دعكِ من كل هذا، سوف أرسل أمي لخطبتك، وإتمام الزواج في أسرع وقت، لقد تأخرت في ذلك عامًا ونصف منذ عودتي من "هولندا" حتى تنجح مشروعاتي، بيد أني اكتشفتُ أني بحاجة إليكِ بجواري، فأنتِ مشروعي الكبير، وكنت مخطئًا.

- رجاء:أنا أنتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر.

جلستْ بجواره يتبادلان معًا أطراف الحديث، فكلام العشاق كالنغم، وأريج الحب يعبق المكان بسحب الحنان، كانت الأم "حميدة" ترقبهما بسعادة بالغة، فقد كانت "رجاء" تزورها باستمرار في فترة سفره، وتوطدت الصداقة بينهما، وعلمت بميل الفتاة نحو ولدها، وتأكدت من حبهما لبعضهما البعض؛ منذ عودته، وكانت تبارك هذا التقارب، وتحث ولدها على سرعة الزواج منها، واليوم عندما سمعته يخبر الفتاة بذلك، طار قلبها من الفرح، وأخذت تعد نفسها للذهاب لطلب يدها من أمها، فقد جرت العادة في مثل هذه الأمور أن تطرح الفكرة على أم العروس، لتنقل الخبر بدورها للأب، حتى يتفق الرجال

على تفاصيل الزواج حال الموافقة على العروس.

عادت"رجاء" لمنزلها، وبعدها بدقائق لحقت بها الأم "حميدة" فاستقبلتها الأم "سعاد" بترحاب شديد، وأيقنت ماذا تريد، فقد علمت من ابنتها في السابق أنها تحب "غريب" ولكنها خلال هذا اللقاء تظاهرت بعدم العلم، وانتظرت ما سوف تبوح به الخاطبة، وجلست ترحب بها تارة، وتكرم وفادتها تارة أخرى، إلى أن جهرت "حميدة" بطلبها، فرحبت الأم، وطلبت منها الانتظار حتى تعرض الأمر على رب الأسرة.

٨ – الحقيقة الغائبة

أثناء الليلة التي يرقد فيها "غريب" على فراش المرض يجتر الذكريات، كان العمدة "دياب النمر" يفكر في الخلاص من الشراكة معه؛ لأنها جرت عليه وابلاً من السخرية، كما أن الهدف من مشاركته في مشروع مزرعة الألبان، كان بقصد غسل الأموال التي جمعها جمعًا من تجارة المخدرات، ومن بقايا أعمار المدمنين، حتى يدرأ عن نفسه الشبهات العالقة بمصدر أمواله.

يتهافت البشر المغيبون في القرى، والكفور، والنجوع على الكيف كأسراب الجراد، التي تهبط على الحقول فتلتهم ما بها من زرع، فتتحول الأرض الخضراء إلى ساحة جدباء، وهكذا تحولت العقول بفعل السموم إلى أوكار للخواء والضياع، فقد ذهب الحياء عن المدمنين، بالماضي كانوا يستترون من الناس عندما يدخنون السجائر، أما اليوم فيشربون المخدرات، بلا خجل، ويدخنونها في وضح النهار بالطرقات، وفي الأفراح، وفي جلسات السمر، ونظرًا لضيق ذات اليد؛ تحول معظمهم نحو مخدر البانجو لرخص سعره، فهو يشبه الملوخية الجافة.

يحفظ القرويون والفقراء أوصاف مخدر"البانجو" كما يحفظون أبناءهم، وكانوا يفحصونه كالخبراء المتخصصين، فصنفوه إلى نوعين أحدهما يميل إلى الخضرة، وسعره أرخص، أما النوع الآخر يميل إلى الإصفرار حيث تكون نسبة الأزهار فيه أكثر وبالتالي فإن تأثيره أقوى وسعره أعلى نسبيًا، وكان لكل صنف زبائنه.

يجلس العاطلون يتسكعون على النواصي في أرجاء القرية، فيخلطون البانجو بالتبغ، لتدخينه ويطلقون على "سيجارة البانجو" اسم"الصاروخ"،

وعندما يشعلون هذا الصاروخ المزعوم تنبعث منه رائحة تشبه رائحة البروتين المحترق، أو رائحة شعر الماعز.

كان "دياب النمر" كتاجر مخدرات محترف يقسم البائعين لينتشروا في أرجاء المحافظة، كل بائع يتحرك نحو الشريحة المناسبة، فيباع "البانجو" في الأرياف الفقيرة، و"الحشيش" للمدمنين الأثرياء، و"الأفيون" للمتمرسين في الكيف، أما الهروين لطلاب الجامعات، ولم ينس الرجل طبقة الحرفيين؛ فمدهم بالحبوب المخدرة، مثل "الترامادول" الذي يستخدم كمسكن قوي ومخدر للآلام، خاصة التهاب المفاصل والسرطان، وغيرها من الحالات الشديدة؛ بيد أن المنحرفين درجوا أن يتعاطونه كمخدر لأغراض عدة.

كان تربح المال من تجارة تلك السموم هو كل همه، وكان ذكاؤه الشديد يجعله فوق الشبهات، فلم يكتشف الأمن أو أهل القرية أمره، وكان يتعمد أن يروج الشائعات حول مصدر ثروته، تارة بأنه عثر على كنز، فتطير الرواية في القرية كما الريح، وتارة يقوم بشراء وبيع الأراضي الزراعية لغسل أمولة.

بدأ "دياب النمر" مشواره في تجارة المخدرات منذ صباه، في البداية كان يقوم بتوصيل صفقات المخدرات من المهربين إلى التجار، وذلك بمدينة الإسكندرية، وظل على هذا الوضع حتى اشتد عوده، وعرف كل أسرار المهنة، حتى وثق فيه "فهد السكران" أحد كبار تجارة الصنف بمنطقة العجمي، وكان رجلاً بشرته شديدة البياض، وقلبه شديد السواد، جسده ممتلئ، وكرشه يمتد أمامه بضع قبضات من قبضة اليد، ويأخذ نفسه بصعوبة، ويبيع نفسه بالمال، ولا يعنيه سوى جمعه.

وابتسم الحظ لـ "دياب النمر" عندما حاز على ثقته؛ وأصبح من رجاله، واختفى العمدة الوضيع مستترًا في خبثه، ولا يعلم أحد عنه شيئًا سوى بعض كبار الموزعين، والضالعين في الكار من التجار.

وكعادته عند الخصومة كان يفجر، فيبطش بأعدائه أشد ما يكون البطش، ففي بداية شبابه دارت معركة حامية الوطيس بينه وبين صديقه القديم

"سرحان الأعسر" للفوز والزواج من الحسناء "فاتن"، فنصب الرفيق الفخ لرفيقه، وللخلاص من هذه المنافسة التي كانت في غير صالحه، فكر ودبر، بأن زج "دياب النمر" في طريق منافسه بعاهرة جميلة أغوته حتى صار رفيقًا لها، يلتقيها باستمرار في منزله، وللقضاء عليه أكمل حيلته بأن أبلغ عنهما مباحث الآداب، فضبط متلبسًا في أحضانها، وبات مفضوحًا بها في كل مكان، فترفض كل الأسر مصاهرته، وهذا ما أفسح أمامه الطريق لاحقًا، للفوز بزوجته "فاتن".

كان "سرحان الأعسر" أسودًا سواد الغراب، طويلاً ذا ملامح إجرامية، شديد العناد، بين حاجبيه فوق الأنف بقعة سوداء بارزة في حجم حبة القمح، ويطلق المصريون على هذه البقعة اسم "حسنة"، بيد أن هذه البقع لا علاقة لها بالحسنات أو السيئات، وتعرف علميًا باسم فرط التصبّغ،أو فرط إنتاج الميلامين، ولكن كل شعب يطلق عليها اسمًا حسب عادته.

عرف عنه بالإسكندرية الشراسة في الانتقام، فلا فرق بين سواد قلبه، وسواد بشرته، وبعدما سقط في الفخ، علم أن من دبر هذه المكيدة المحكمة هو صديقه "دياب النمر"، فعاش يجتهد ليرد له الصاع صاعين، دون جدوى؛ لأن غريمه كان شديد الحرص، ورغم أن الأيام دارت دوائرها، إلّا أن الصراع مازال معلقًا، ومازال خصمه اللدود من وقتها يسعي للثأر منه، كي يسترد منه "فاتن" لنفسه، رافضًا للأمر الواقع، فكلاهما أحبها لدرجة العبادة، وقد يزيد، ولا أحد يعلم مدى الغل المشتعل في صدر هذا الذئب الذبيح بشوقه، ضد الذئب الذي غدر به.

وكأن التاريخ يأبي إلّا أن يتكرر، فمنذ أن شهدت البشرية حادثة القتل الأولى من أجل امرأة، عندما قتل قابيل أخاه هابيل للفوز بزوجته، لم يتوقف القتل إلى اليوم من أجل حواء، وأصبح "سرحان الأعسر" هو قابيل اللحظات أو الأيام أو الشهور القادمة، فقد عاش يطلب عمر غريمه من أجل أن ينتزع من تحته شريكته، هذا الصراع الأبدي يشتعل في كل دقيقة، ومع كل صباح يولد قاتل من أجل امرأة، ويرحل مقتول بسببها، وهي تتنقل في حالات كثيرة بين ظالم ومظلوم، أو وغد، ومجرم كما التراث، كأنه كتب على وجنتيها أن جمالك كلما

ازداد سوف يقطف ما بقي من أعمار الرجال، لتراق الدماء الطاهرة، وغير الطاهرة كقربان على مذابح الرغبات الملتهبة، تبًا لهذا الجمال الذي يدفع إنسان للخلاص من إنسان آخر، فلا يوجد على وجه الأرض ما هو أعظم من قدسية الروح البشرية، التي تسفك على أيدي البغاة في مشارق الأرض ومغاربها، ظلمًا تارة، وعدوانًا تارات أخرى.

كان القاتل كالقدر الذي يطلب ضالته، ومنذ أكثر من عشر سنوات وهو يتتبع خطوات خصمه، من خلال عيون يحركها بالمال لتخبره بعدد أنفاسه، وكلما فشل في حصاد عمره مرة، يشتد عزمه وإصراره في مرات متتابعة، وكانت الخطة المرسومة هي الخلاص منه أثناء تواجده لعقد الصفقة السنوية مع مسئول التوزيع لحصص المخدرات، وهو أحد صبيان "سرحان الأعسر"، الذي أصبح أكبر تاجر للكيف في البلاد، وقد رتب للجريمة كي تبدو قضاءً وقدرًا، وذلك عندما يقضي "دياب النمر" بضع أيام في الخريف من كل عام، كعادته بأحد الشاليهات المستأجرة بالساحل الشمالي؛ حيث يتم في هذا اللقاء تحديد حصته من المخدرات لعام قادم، ويتسلمها الوكلاء على عدة مرات، بداية من شهر يناير في السنة الجديدة.

وقد خطط للخلاص منه حرقًا، عن طريق إتلاف محبس أنبوبة البوتاجاز، حتى تشعل النار في المكان عن بكرة أبيه، حيث يوجد أربع أنابيب بالشاليه، إحداهما لسخان الغاز، والأخرى للبوتاجاز، وأخريتين احتياطيتين، ورتب لهم أن يشتعلوا في آن واحد، وذلك بعد أن يرش المكان بنوع من البودرة التي تساعد على الإشتعال. كانت بشاعة التخطيط للقتل تدل على خسة القاتل، وهذه الهمجية بالغة التعقيد لدى تجار السموم كافة، ففي هذا العالم المنحرف، لا توجد أخلاق، ولا ضمائر ولا قيم.

ربما قد نسي "دياب النمر" شراسة الموقعة القديمة، ورغم حرصه، فقد ظن أن الزمان آذاب مرارة الماضي إلّا أن المهزوم بالغدر لا ينسى ثأره، ويسعى لاسترداد ما يعتقد أنه قد سلب منه بالغدر، وتضخمة رغبة الانتقام لدى "سرحان الأعسر"، خاصة بعد أن علا شأنه وأصبح نقيبًا لتجار الكيف.

واليوم، وفي هذه الليلة الظلماء، خرج "دياب النمر" عن ثباته هو الآخر، فبات يفكر في القتل، كعادة المجرمين العتاة، وأصبح كل همه الانتقام من "سيف جاد" الذي دشن حملة على "الفيس بوك" للسخرية منه بصفحة القرية، كان ينوي الخلاص منه ثأرًا لهيبته؛ لأنه سوف يدفعه للانسحاب من مشاركة "غريب" في المزرعة، مما يضيع عليه فرصة جيدة لغسل أمواله.

وقد جرى العرف في عالم الكيف على استشارة الكبير في مثل هذه المسائل الشائكة، حتى لا تنزلق الأمور إلى ما لا يحمد عقباه؛ ولذا خرج قاصدا الإسكندرية، حيث فيلا كبيرة "فهد السكران" الذي استقبله في بداية الأمر بترحاب، بيد أنه انقلب عليه ساخطًا عندما علم بفكرته المجنونة، فجريمة القتل ربما تقود رجال الأمن نحو كشف المستور، فزجره ونعته بأبشع الصفات، وربما لأول مرة يحتد عليه؛ لأن سقوط أحد أفراد العصابة ربما يقود إلى اصطياد الباقين، وهذا في جرائم القتل وارد، بسبب جدية التحقيقات، وأمره بعدم التفكير بهذه الطريقة مرة أخرى، فامتثل الثعبان لكبير الأفاعي، كما هي عادة العصابات العتيقة في الإجرام.

أما عن سخرية أهل البلد منه فقد نصحه بتجاهلها، وبسرعة فض الشراكة مع "غريب"، إلى حين تدبير الأمور، والتمكن من وقف حملة الهجوم عليه، عبر صفحات الفيس بوك، فربما يكون الحل عند صديقه المهندس "ضياء"، فهو من مدمني الأفيون، وقد تكفل "فهد السكران" بمده بالكيف مجاناً، فهل سينجح "ضياء" في إيجاد الحل؟

عاد "دياب النمر" إلى القرية برشده الذي كاد أن يفقده، وظل ينتظر الفرج، كما وعده الكبير، ولكن من أين يأتي هذا الفرج ؟ والقرى المجاورة تتناقل التعليقات الساخرة في كل مشاركة على شبكات التواصل الاجتماعي، فقد ملأت النكات بعضًا من الفراغ في حياة الشباب الهائم في الفضاء الإلكتروني، وصنعوا جواً من السخرية القاتلة، فقرر أن يعاقب "سيف جاد" بجره نحو الإدمان ليكون أضحوكة كل من "بكفر الهوى".

وفي اليوم التالي اتصل بإحدى بنات الليل، وقابلها في شقة استأجرها لها في القاهرة، وطلب منها أن تطلق على نفسها اسمًا حركيًا جديدًا؛ وذلك حتى لا يعرفها أحد فيما بعد، وقد أطلقت الماجنة على نفسها اسم "دلال الطويل" على صفحتها بالفيس بوك، وذلك لنصب الفخ، واستدراج "سيف جاد" وكانت "دلال الطويل" الوهمية فتاة ثلاثينية رشيقة، ذات ملامح غربية، جسدها نحيل، وعيونها خضراء فاتنة، ومتحررة إلى أقصى ما يكون التحرر، كما أنها متمرسة في استخدام الفيسبوك، واصطياد الرجال، والشباب، وقد اتفق معها على كل التفاصيل.

وفي المساء عاد "دياب النمر" ودخل غرفته مرهقًا لينام لعله يهدأ، كانت الأفكار المتصارعة تتعارك في أم رأسه، والسخط على مواقع التواصل الاجتماعي يشعل ثورته، فاستقبلته زوجته "فاتن" غاضبة، تعنفه وتلومه على خروجه دون علمها:

- فاتن : لماذا تأخرت هكذا؟

- دياب: كنت أبحث عن حل لورطتنا مع غريب.

-فاتن: وهل وجدت الحل؟

-دياب: نعم، فض الشراكة، لم يطلعني "غريب" على تفاصيل المشروع، كل ما ذكره أنه مشروع حديث لإنتاج الألبان.

- فاتن: أنا لم أسمع من قبل عن مزراع للجاموس في مصر تعمل بالموسيقى، ولكن تريث، ربما استمرارك معه كان أفضل.

- دياب: هذا قرار عمك، وأنا لن أخالف قراره.

كانت في قرارة نفسها ترفض فض هذه الشراكة؛ لأنها على غير هواها، ولكنها كظمت غيظها، وأخفت مشاعرها، وامتثلت للأمر.

كان "دياب النمر" لا يجرؤ على إغضابها؛ لأن عمها هو "فهد السكران" نفسه،

ورب نعمته في تجارة الكيف، كما أنه قد تزوجها عن حب جارف، وقد سبق أن دقت عنقه برفض الزواج منه عدة مرات، تعالياً عليه؛ لأنها كانت حاصلة على دبلوم التجارة، بينما هو لم يحصل إلّا على الإعدادية، بيد أن ثراءه السريع قلب دفة الأمور لصالحه، فأطاح بريق الذهب بحججها في محيط أسرة لا تقيس وزن البشر إلّا بالمال.

كانت "فاتن" امرأة رشيقة، رَّبْعَة، بيضاء البشرة، وثديها الشامخ متماسك، ومستدير، تقف قمته فوق عضلات الصدرتشعل نار اللوعة في وجه الناظرين نحوه، فلا يستطيع الذكور مقاومة نداء الرغبة عندما يشاهدونه، كانت ذات جسد مثير للشهوات، وتمتلك مؤخرة بارزة متناسقة، تغري من يراها، فتشعل الشوق الذي لا ينطفئ إلّا بالوصال، كانت تسيطر على "دياب النمر" بأنوثتها الطاغية، وعقلها الماكر، وبعد أن فشل السايس أن يروض مهرته الجموح، ركبته تحرك اللجام كيفما شاءت، فكان يحبو أسفل كعبيها كأنه الطفل الرضيع، يرتشف من أنهار الرغبة ما لذ وطاب، مقابل الخنوع الكامل. وبلغت ذروة هذا التحكم عندما أنجب منها ولدين، الأول "هيثم"، وبلغ عمره اليوم ٢١ عامًا، والثاني "أيمن"، وعمره ١٠ أعوام.

كتب الملتاع لإشباع رغبته نصف ثروته لمعشوقته، وكان رهن أصابعها، تحركه كيفما تشاء، ولكنه لم يكن يعرف أنها تغرق بين أمواج الشوق الجامح عشقًا لرجل آخر، فقد خفق قلبها نحو الفتى "غريب" وكانت ترغب في أن تبلل شوقها بوصاله، وكان ذلك هو سر رفضها لإنهاء الشراكة معه، ورغم تجاهل الفتى لها مازالت راغبة فيه، وتحيا في الهوى تتجرع مرارة اليأس، والرجاء.

ألقى "دياب النمر" جسده على السرير منهكًا، فغط في سبات عميق، فوثبت من جواره نحو شرفة الغرفة؛ كي تستنشق الهواء لعل نار رغبتها لـ "غريب" أن تهدأ دون جدوى، كانت تتخيل أصابعه تتخلل خصلات شعرها، وشحمتي أذنيها، لتدور أنامله بحركات دائرية فوق صدرها الملتهب، فجأة تلتفت إلى الخلف، وتخبط كفيها بعنف فوق المؤخرة المثيرة، تكلم نفسها بصوت داخلي:

- ألم ير ذلك الوغد تلك المؤخرة التي تخلع قلوب الرجال، وهم ينظرون نحوها، من أين جاء هذا الرجل بمثل ذاك الصمود ؟ لم يرني أحد إلّا وأحسست بنار الشوق تأكله، هل سيعذبني هذا الفتى بذات النار التي أحرقت بها قلوب الرجال؟

تذكرت كيف كانت تشعل نيران الهوى، فيحبو خلفها الرجال صرعى يلتمسون الرضا، حتى في ليلة عرسها كاد كل المعازيم أن يأكلونها بأعينهم، فقد عُزم "سعيد بيك"كبيرتجارالكيف وقتها من قبل عمها، ليوطد علاقته به، وعندما شاهدها جن جنونه، وحتى يلفت نظرها نهض ينثر الأموال فوق الراقصة مما أذهل الحضور، وفي اليوم التالي ذهب ليقدم النقوط، فوضع ظرف به عشرة آلاف جنيه، ففرحت بالمال، وفرح زوجها وعمها بحضوره، فهذا يعني فتح أبواب تجارة المخدرات أمامهم على مصراعيه، وهذا ما حدث عندما نالوا رضاه، فمنحهم حصصًا إضافية في السوق، وعندما فتحت له "فاتن" ذراعيها، فأصبحوا بذلك من كبار التجار.

كان "سعيد بيك" على أعتاب الستين من عمره، نحيلا وأنيقًا، وعذب اللسان، خفيف الظل، عرف عنه الدهاء وسرعة البديهة، ورغم أنه رجلُ حريصُ، له سطوة في عالم المخدرات، ضربته المراهقة المتأخرة عندما رآها، لم يستغرق كثيرًا من الوقت حتى أوقعها في شباكه، فصليل المال جعلها تهرول نحوه، فجذبها كما يجذب المغناطيس الحديد، وبذكاء حواء لم يلحظ أحد هذه العلاقة، وظلت تزوره في منزله من آن لآخر، تمنحه نفسها مقابل المال تارة، ومقابل دعم عمها وزوجها تارة أخرى، وظلت هكذا حتى خفت بريقه، والتهمه الوهن لكبر سنه، فتركته مع آلام الشخوخة لتغوي غيره.

وعندما قرر زوجها التقدم لمنصب عمدة قرية "كفر الهوى"، كان حظه فيها ضعيفًا، نظرًا لهشاشة جذوره، ولكن عندما شاهدها المأمور معه دعاهما لمكتبه، ورحب بهما، وحتى يختلي بها طلب من أحد عساكره أن يصطحب "دياب النمر" لعمل فيش وتشبيه، وبعد خروجه عبث بنظراته في أنحاء جسدها يتفحصها بنهم بالغ، لاحظت من أول وهلة ذوبان الرجل فيها، ووعدها بالمساعدة في أن

تصبح زوجة العمدة إذا كانت التحريات في صالحه، بادرته قائلة:

- فاتن: دع مهمة التحريات لي.

- المأمور: كيف، تلك مهمة الشرطة.

- فاتن: سوف آتيك غدا بنفسي لأقص عليك كل سيرته في شقتك.

بُهت الرجل من جرأتها، كما أذهله جمال أنوثتها، وطاب له أنها قرأت أفكاره بسرعة، ودون لف أو دوران، كان المأمور فوق الأربعين عامًا، أسمر اللون، ذا شارب كثيف، متوسط الطول، عرف عنه أنه زير نساء، وتلك كانت نقطة الضعف فيه رغم كفاءته، وبعد أن ذهبت إليه عدة مرات، تم تزكية "دياب النمر" عمدة لقرية "كفر الهوى"بقلم الهوى.

وتكرر ذلك مرات كثيرة، دون أن يكتشف الزوج مجونها، فقد كان لكل منهما دور في عالم الانحراف، هي تكدس المال وتدبر بعض المصالح بثدييها، وهو يجمع المال من دماء المدمنين، ما أوجعها أن قاذفة الأنوثة فوق صدرها وفخذيها لم تصب "غريب" في مقتل، بل من قُتل في هذه الموقعة هي نفسها.

نظرت نحو السماء وقد أوشك القمر على الرحيل، فخيل لها أن صورة "غريب" في منتصف القمر، جلست على مقعد من خشب الزان تنظر نحو القمر متوهمة صورته في وسطه، فأمضت ما بقي من الليل تتبعه حتى غلبها اليأس، فنهضت والأشواق تلسعها، كما السياط الحامية، دخلت الغرفة يلعب برأسها مكرحواء، فأقسمت بينها وبين نفسها ألّا يفلت منها الفتى، إلّا مجندلًا بين أحضانها، غارقًا بفحولته في عسل الأنوثة الطاغية، وراحت تخطط لليوم الموعود.

٩- ابن الأصول

عُرف"شريف حسونة الفقي"ابن العمدة "حسونة الفقي"، ووالد الحسناء "رجاء" في قرية "كفر الهوى"بأنه سليل المجد والشرف، كان فارع الطول، ذا ملامح شرقية، بشرته قمحية اللون، ورغم أن عمره خمسة وخمسون عامًا مازال شعره شديد السواد، وصحته جيدة كشاب في العقد الثلاثين من عمره، كانت له هيبة تظهر أينما حل، ودون أن ينطق بفرض سطوته بحسن طلعته، ويؤكدها بسلامة منطقه أثناء الحديث، فعندما يتكلم يجبر من أمامه على الصمت لرجاحة رأيه، عُرف عنه منذ صغره طيبة القلب، كان حصيفًا في تصرفاته، يتحسب العواقب، والمحاذير، وبعد تخرجه من كلية التجارة عين بمصلحة الضرائب، حتى أصبح مديرًا عاما بها، وتميز في العمل بطهارة اليد، والأمانة، وشدة حسمه للأمور.

كان والده الراحل عمدة القرية، وبلغ نفوذه كل القرى التي تجاورها، بيد أنه دفع ثمن ذلك النفوذ بأن أهمل زراعة أرضه، ومصالحه الخاصة، فباع معظمها على توطيد هذا النفوذ، حتى وافته المنية ١٩٩٥م، ولم يبق من أراضي العائلة سوى ٤٠ فدانًا من جملة مئتي فدان، ووزع الميراث على أولاده، وكانوا ثلاثة رجال وبنتين، بلغ نصيب "شريف حسونة الفقي" عشرة أفدنة، كان حبه للأرض يساوي حبه للحياة، فأقسم هو وأخوته بأن يقضوا مابقي من أعمارهم ليستعيدوا ما بدده الأب من الأراضي، ورفضوا أن يتولى أحدهم منصب العمودية بدلاً من أبيهم، فقد أكلت في الماضي معظم ما ورثه أبوهم من أراض؛ ولذا ظلت القرية لفترة دون عمدة، إلى أن تولى "وهدان أبو طقية" المنصب.

كان "وهدان أبو طقية"فلاحًا قصيرًا قمحي اللون، وتجاوز الستين من عمره، أما تعليمه فقد انتهى عند المرحلة الإعدادية، اشتهر بالمراوغة، وشدة البخل، ومنذ شبابه وهو من بين أعضاء المجلس المحلي بالقرية، ولا يملك سوى ثلاثة أفدنة، تكفي أسرته المكونة من ثلاثة رجال متزوجين وأولادهم بالكاد، فكان كلما طلب أحد منه خدمة ألزمه بنفقات انتقاله، وفطوره، ودخانه، حتى ضاعت هيبة المنصب، وأصبح أضحوكة بين بني جلدته لتدني هيبته، وبسبب قلة حيائه؛ يتهكم عليه كل من هب ودب، وأصبح الناس يطلقون عليه لقب "عمدة بسيجارة"

فكان يشهد مع هذا إذا ألقمه قليلا من المال، ويوقع على الأوراق التي تتطلب توقيعه، بعشرة جنيهات للتوقيع الواحد، حتى لفظته الإدارة بعد ثلاث سنوات بأن فصلته، بعد أن لطخ وقار المنصب بالطين والوحل، وظلت القرية بعدها دون "عمدة" حتى جاء "دياب النمر" محملا بزخرف الأموال الحرام، فاستقر في المنصب، دون أن يعلم الجميع عن مصدر ثروته شيئًا.

وبمرور الأيام سريعة كعادتها، وبعد عقد ونصف من الزمان، مازال"شريف حسونة الفقي"وأخوته يمارسون أعمالهم كالنحل في خلاياه، ولا يتوقفون عن العمل سوى لالتقاط الأنفاس،حتى استطاعوا بالعرق والكفاح، استعادة نصف مابدده الأب من أراض. وانسحبوا من الحياة العامة، إلّا في بعض النواحي الإنسانية، والاجتماعية، كالمجاملات في الأفراح، والشد من أزر المكلومين، ومصالحة بعض المتخاصمين حال اللجوء إليهم، هذا الدور أبقى لهم الريادة الأخلاقية في القرية، بعيدًا عن الشق الرسمي.

جلست "سعاد" تنتظرعودة زوجها "شريف حسونة الفقي"كي تخبره بقدوم خاطبا لابنتهما، كان الفرح يملئ وجهها، فتزداد تألقًا، كانت طويلة، وبيضاء بارعة الحسن، والجمال، حسنة المعشر، أبوها كان قاضيًا عادلاً، أحسن تربيتها، وعلمها حتى تخرجت من كلية الآداب، وعملت مُدرّسةً للتاريخ بمدرسة القرية الإعدادية، وتدرجت بالمناصب التربوية حتى ترقت مديرًا عامًا بالإدارة التعليمية، وأُسند إليها مهمة التخطيط والمتابعة، أما عن عمرها

فقد أتمت الخمسين عامًا.

كانت العروس "رجاء"بكريتها، وأول فرحتها، ولذا كانت سعادتها بهذا النسب تفوق كل الحدود، وما يريح قلبها أن منزل العريس بجوارها، وسترى ابنتها كل يوم، وهذا أشد ما يريح الأمهات، منذ الصباح وهي تتمنى أن يطوي الغروب النهار، ليأتي المساء حتى تخبر رب العائلة بطلب أم "غريب"، كانت فخورة بهذه المصاهرة، ومتأكدة من موافقة زوجها، فقد كان معجبًا بقصة كفاحه، وقوة صبره، وكان يضرب به المثل أمام أولاده الذكور حتى يقتدوا به، كما أن أصله الطيب يرجح كفته، وبمجرد أن انتشر الخبر في المنزل ساد جو من التفاؤل، الكل ينتظر عودة الأب لمباركة هذه الزواج.

أما فرحة "رجاء" كانت تشي بحبها، عيونها تلمع من فرط السعادة، والبسمة لم تفارق شفتيها منذ الصباح، كادت من بهجتها أن تحلق في السماء، لتخبر الدنيا عن حالها البهيج، لقد جاء اليوم الموعود الذي كانت تنتظره بفارغ الصبر، قلبها يرقص، وروحها تحلق فوق الأماني، وتغوص بأفكارها في ربيع الأحلام الوردية، كانت تتخيل شكل حفلة الخطوبة، ولون فستان الفرح، ومكان ليلة الزفاف، وتتساءل بينها وبين نفسها:

- تري هل سوف يحملني "غريب" بين ذراعيه في ليلة الدخلة، ويصعد بي السلم حتى غرفة النوم، كما في الأفلام.

حملها هذا التخيل نحو محاولة استكشاف ما هو قادم، بمواصلة الأحلام البيضاء طوال النهار، كانت تفكر في تفاصيل كثيرة، من الفرحة لم تأكل طوال اليوم، كانت تشعر بالشبع، بعد أن تحقق نصف الرجاء بقدوم أم الحبيب لتخطبها.

عاد "شريف حسونة الفقي"إلى منزله في المساء، وبعد أن تناول العشاء في البهو الكبير، انتقل يحتسي الشاي بزاوية منه، وتحركت خلفه زوجته، وجلست بجواره، وظلت "رجاء" تتصنع تناول الطعام لتسمع ما يدور من حديث، كانت أذنها معهم تلتقط كل كبيرة وصغيرة، وعيناها في الأطباق، سمعت أمها تخبره

بقدوم "حميدة" تطلب مصاهرة العائلة، فصمت لبضع لحظات، أقلقها صمته، فلم يرد عليها إلّا بعد أن أكمل شرب كوب الشاي، بعدها اعتدل في جلسته، والكل ينصت ليسمع قراره، المفاجأة أنه رفض هذه المصاهرة، سيطر الذهول على وجه الجميع، وعندما شعر بذلك، لم يلق بالاً، فبادرته زوجته بحماس تسأله أن يبرر أسباب هذا الرفض:

- سعاد: لماذا تغيرت هكذا تجاه الفتى؟ أترفضه بسبب ما ينشر عنه من سخرية على الفيس بوك ؟
- شريف: كلا، فأنا أحترم أي محاولة جديدة تهدف لزيادة الإنتاجية، فالموسيقى بالتأكيد لها تأثير إيجابي على من يسمعها من البشر، ومن الوارد أن تؤثر على الحيوان، وتلك التجربة قرأت عنها في بعض دول أوروبا الغربية، ومحاولة الفتى لنقلها إلى مصر شيئ جيد.
- سعاد:إذن لماذا الرفض؟
- شريف: لأنه عقد شراكة مع "دياب النمر"
- سعاد: وما الضرر في ذلك؟
- شريف:هذا الرجل المريب مصدر ثروته غير معلوم، ومن الواضح أنه جمع المال بما يخالف القانون؛ ولذا أرفض هذا الزواج حتى تتضح الحقيقة.

نهضت"رجاء" تتحرك نحو غرفتها بغيظ، وتخبط الأرض بقدميها وهي تمشي، تركت الأطباق على المنضدة على غير عادتها، فقد كانت تجمعها بعد الأكل لتغسلها، لاحظ الجميع الغضب الصامت مرسومًا على جبينها، وأدرك الأب في هذه اللحظة بفطنته أن ابنته تذوب عشقًا في الفتى.

صعدت رجاء السلم ودخلت غرفتها حزينة، وأغلقت الباب وانهارت باكية،

كانت دموعها تهطل بغزارة، ولا تدري ماذا تفعل، تبعتها أمها لتهدأ من روعها، ووعدتها بأنها سوف تحاول مع أبيها مرة أخرى وانصرفت، بعد لحظات فتحت الكمبيوتر لتخاطب "غريب" فلم تجده، وكتبت له الرسالة التالية:

بنت النيل: حبيبي "غريب" أرى أن القدر يعاندنا، لقد رفض أبي طلبك للزواج مني، ولا أدري ماذا أفعل، وحتى لا تصدم لاتقلق، فمن جهتي سوف أظل متمسكه بك إلى آخر يوم في عمري، ولن أقبل بغيرك بديلا، حتى لو خطبني ملاك من السماء، فأنت ملاكي، وأميرى، وكل شيئ في حياتي، وعهدي معك أن أكون لك فقط، ولن أكون لغيرك، فاصبر معي، وساعدني على الصبر بثباتك، إلى أن يجمعنا الله تحت سقف واحد.

عاد"غريب"إلى الفيس بوك، وفتحه وقرأ الرسالة، ورد عليها:

ابن النيل: حبيبتي لقد تعودت الصبر حتى أنال ما أريده، وسوف أُقنع والدك بضرورة إتمام هذا الزواج، فلا تبتئسي، ولا تحزني، فحبنا في قوته أكبر من هذا الكون الفسيح، وأكبر من كل التقاليد الواهية، ربما كان سبب الرفض من والدك هو مشاركتي للعمدة"دياب النمر"، وسابقًا قلت لك أن السبب هو توفير سيولة مالية للمشروع حتى أتمكن من مصاريف الزواج، كنت أود أن أقيم لك حفل زفاف ليس له مثيل، كأنه حفل الزاوج من الملكة، وبالفعل أنتِ ملكة في مملكتي، وأجمل وردة في عالم الحب الطاهر.

أود أن أخبرك بسبب آخر لهذه الشراكة مع "دياب النمر"، هو إلحاح دياب النمر على العمل معي، وقد رددته مرتين، وفي المرة الثالثة وضعت شروطًا أعلم أنه سيرفضها، فقبلها، فاستحييت أن أرده، فربما أكون سببًا في صلاح حاله، وعندما طلب فض الشراكة بعد حملة التشهير بالمشروع تأكدت أنه له مأرب آخر حتى الآن لا أعلمه، فرددت له كل أمواله اليوم.

حبيبتي لا عليك من حزني، فالحزن سوف ينزوي مهزومًا أمام بهجة الحب عما قريب، سوف ننتصر معًا على أعداء الغرام، ولا أظن أن والدك منهم، فربما بنى قراره على تصورات غير قائمة، إلى اللقاء.

عندما قرأت رسالته استقرت لثباته، وعلمت أنه لن يستسلم، وسوف يحاول ثانية، ومهما بلغ عدد المحاولات لن يضربه اليأس.

١٠ – الضريح المقدس

كان "سيف جاد"يجلس على صفحات "الفيس بـوك" ينشر التعليقات الساخرة، ضد فكرة المزرعة الموسيقية، إلى أن جاءه طلب للصداقة من فتاة أطلقت على نفسها "دلال الطويل" فوافق على الصداقة من فوره، وتبادل معها رسائل الترحيب، والكلمات المعسولة، وتطور الأمر بأن تحدثا معاً عبر الكاميرات، وأوهمته بأنها أرملة تعيش وحدها في شقة الزوجية، بعيدًا عن الأهل والأصدقاء، كانت الفتاة تتعمد إشعال رغبته، بالألفاظ الملتهبة، أوإظهار مفاتن جسدها، وظلت معه هكذا لمدة يومين، ألهبت فيهما مشاعره، حتى أصبح كل همه أن يلتقي بها لينفض عن نفسه حرارة الشوق، بقضاء ليلة بين أحضانها.

وافقت على اللقاء، على أن يذهب إليها في القاهرة بشقتها في روض الفرج على كورنيش النيل، وفي مساء اليوم التالي، وفي المكان المحدد استقبلته وصعدت به إلى السكن الخاص بها، وقضت معه ليلة ساخنة، كانت تطعمه الجنس بطريقة تجعله يذوب فيها كما يذوب السكر في الماء، وما أن انتهت الليلة حتى طلبت منه الرحيل، ولكنه طلب منها البقاء يومين آخرين، بيد أنها تحججت بقدوم بنت خالتها لزيارتها لمدة يومين، ولايجب أن تراه، ووعدته بأن تصحبه معها ليقيم معها مدة ثلاثة أسابيع كاملة في شرم الشيخ الأسبوع القادم، بفيلا إحدى الصديقات.

ظل سيف ينتظر رحلة السفر معها، ليعبث معها في أنهار الرغبة، فقد كانت أنثى كاملة النضج، لذيذة اللقاء، تحترف إثارة الغرائز، وتجيد إطفاء الأشواق

المشتعلة، وفي الموعد المحدد ذهبا معاً إلى شرم الشيخ في فيلا على شاطئ خليج نعمة، وفي المساء عندما أراد أن يضاجعها أخبرته أن كفاءته سوف تزيد إذا أخذ بعضًا من الأقراص المخدرة، رحب بالفكرة، وفي اليوم الأول ألقمته بعض حبوب الترمادول، لمدة يومين، وفي اليوم الثالث حضرت بعض صديقاتها من البغايا، وأقنعوه أن فحولته سوف تكون أقوى إذا أخذ بعضًا من الهروين.

لم يكن المهووس بالجنس يعلم مدى خطورة الإدمان، في البداية كان مترددًا حتى استنشق أول جرعة، شعربعدها بحالة من الاسترخاء في جميع أنحاء جسمه، وبعضًا من النشوة والراحة، وإحساسًا وهميًا بالسعادة، واستمر يتعاطى الهروين مرة يوميًا لمدة أسبوع، وفي منتصف الأسبوع الثاني تم زيادة الجرعة إلى جرعتين، مرة بالصباح، وأخرى بالمساء حتى أصبح في نهاية الأسبوع الثالث لايستطيع التوقف عن التعاطي لمدة تزيد عن ١٠ ساعات، وبذلك يكون قد انضم إلى قافلة المدمنين.

وبعد إنجاز المهمة رحلت عنه "دلال الطويل" في صباح اليوم الأخير من الأسبوع الثالث، بيد أنها كانت حزينة، لقيامها بهذا الدور الخبيث، فمهمتها في السابق لم تتجاوز قضاء ليلة أو أسابيع حمراء، مقابل المال فقط، ومع من يدفع، أما اليوم فقد شعرت بوخز في الضمير، وتحركت مشاعرها الميتة، وندمت على القيام بهذه المهمة الخسيسة، ورغم أن عالم الرقيق الأبيض لا يعترف بوخز الضمير، إلّا أنها شعرت ببالغ الندم، ولكنها بعد أن عادت إلى موطن إقامتها بالإسكندرية، وقبضت باقي أتعابها من "دياب النمر" قد نسيت ماحدث، ومات الماضي كما تموت الليالي الماجنة في ليالي أخرى أشد فجورًا.

استيقظ "سيف جاد"في المساء يبحث عن رفيقته فلم يعثر لها على أثر، وفي صباح اليوم الجديد جاءه السمسار يطلب منه مغادرة الفيلا، لانتهاء مدة الإيجار، خرج مذهولا كالمجنون لا يستطيع تفسير ماحدث، استقل الأتوبيس من شرم الشيخ إلى القاهرة ليحصل على الجرعة من "دلال الطويل" ، وعندما ذهب للشقة التي قابلها فيها أول مرة لم يجدها، فقد كانت شقة مفروشة أيضًا، لم يسعفه عقله الغائب ليفكر في شيئ سوى في البحث عن "الهروين"، وأصبح كل

همه هو الحصول على الجرعات في موعدها.

تحول "سيف جاد" من اليقظة إلى الخمول، وكان بعد التعاطي يشعربعدم القدرةعلى التركيز، والنسيان،والخمول، وتلعثم اللسان، وضيق بحدقة العين، واحتقان الملتحمة، واحمرارها، وزيادة ضربات القلب، والتي سرعان ما تتحول إلى بطء في ضرباته، وانخفاض في ضغط الدم.

وبعد أن عاد من شرم الشيخ تغير حاله، وأصبح مشغولًا بهمه الجديد، ناسيًا "الفيس بوك"،والنساء، وكل ما يدور بالقرية، ونظرًا لأن تعاطي الهروين بالتدخين أو الاستنشاق كان يفقده شيئًا من مفعوله القوي، لجأ مع الوقت إلى تعاطي المخدر عن طريق الحقن المباشربعد خلط "الهروين" بالماء، ونظرًا لتدهور حالته انقطع عن العمل، ولم تمر بضع شهور حتى بدد كل ما يملكه من ثروة، على تعاطي هذا المخدر الخطير.

وأثناء تلك الفترة من انغماس "سيف جاد" في بحور الإدمان بصورة أكبر، كانت قرية"كفر الهوى" في هرج ومرج، فقد تناقل الناس أخبار فض الشراكة بين العمدة"دياب النمر"، و"غريب"، بواسطة نفس المحامي "عمرو صقر" الذي حرر عقد الشراكة، والذي استطاع في السابق رفع اسم"غريب"من قوائم الممنوعين من السفربسبب تشابه الأسماء، أثناء سفره إلى ليبيا منذ أكثر من ثمان سنوات، وكانت أمه من أشد المرحبين بذلك الانفصال وفض الشراكة.

وبعدها لم يبق معه جنيه واحد يدير به المزرعة، فقامت أمه على فورها وأحضرت صندوقًا خشبيًا به كل مصاغها، ووضعته بحجر ولدها، فتحه وفرح بمحتوياته الكثيرة، وكان به كردان من الذهب، كبير الحجم ومكون من ثلاث أدوار، وخلخالين كبيرين، وحلق مخرطة، ورثتهم عن أمها، بالإضافة إلى مصاغ عرسها ، أدهشه أن وزن هذا الذهب ربما يقترب من نصف كيلو جرام، كان قبل السفر يرفض بيعه، تحسبًا للطوارئ، أما اليوم فقد تبدّل الحال، وقبل بيعه؛ لأنه لوحدث مكروه يتطلب المال سوف يجد البدائل التي تمكنه من حل الأزمة، فحل مشكلته في هذه المرة ببيع بعض منه.

ومع هذا لم تتوقف السخرية من مشروع الفتى، وكانت النكات، والتعليقات على صفحات مواقع التواصل الاجتماعي تصل إلى"حميدة" أولًا بأول، عن طريق بنت أخيها"أحلام" التي أدمنت متابعة صفحات "الفيس بوك"، شأنها في ذلك شأن الكثير من البنات، كانت "أحلام"، قصيرة، وقمحية اللون، ومتوسطة الطول، ممتلئة شيئًا ما، أما عيونها فكانت شديدة السحر، بيد أنها كانت كثيرة الكلام، ونظرًا لانشغالها بأخبار الناس على حساب مطالعة المقررات الدراسية بمرحلة الثانوية العامة، لم تحصل على مجموع كبير، ولم تؤهلها درجاتها إلّا لدخول كلية الخدمة الاجتماعية، كانت كوكالة الأنباء بالقرية، لا يبيت خبر في جوفها حتى الصباح، وكلما قرأت تعليقًا أخبرت "حميدة" به، فيجن جنونها، فتصرخ تدعو على الساخرين من ولدها.

ونظرًا لاعتقادها الشديد في كرامات المشايخ، قررت "حميدة" أن تذهب لضريح الشيخ"يوسف الغريب" صاحب أشهر ضريح بالقرية بعد العصر؛ كي تدعو على شباب "الفيس بوك"، وبخراب كل أجهزة الكمبيوتر التي يسخر أصحابها من ولدها، لبست جلبابها الأسمر العتيق، وربطت رأسها برباط أسود، يقال عليه بالقرى "التربيعة"، وهي عبارة عن قطعة من القماش مربعة الشكل، تطوى بضم رأس الزوايتين المتقابلتين في المربع، فتصبح على هيئة مثلث متساوي الساقين، يلف وتر المثلث على الجبهة من الأمام، وضلعا المثلث يمررن خلف شحمة الأذن، لربط الرأس، لتدلى مؤخرة الرباط على عنقها من الخلف، ثم لفت فوقها "طرحة" مستطيلة سمراء أيضًا، وكان هذا هو الزي الرسمي الشائع للكثير من النساء بمعظم القرى حال حدوث حدث جلل، أو أثناء زيارة رسمية لأسرة أخرى، لتقديم واجب العزاء.

وقبيل الغروب، وصلت "حميدة"إلى ضريح الشيخ"يوسف الغريب" فهالها ما شهدته، عندما وجدته شبه مهدم، وقد سقط الطلاء من فوق جدرانه، بابه آيل للسقوط، وشبابيكه الثلاثة مخلوعة، حتى الساحة الكبيرة التي كانت بجواره، استولى على معظمها الجيران، بأن قام كل صاحب منزل مجاور لساحة الضريح بضم جزءًا منه إلى منزله، ولم يبق إلّا خادمة الضريح "شفعات" تعيش

بغرفة مجاورة للضريح، وترفض ترك الشيخ والعيش مع أولادها، لتحرس مقامه وترعاه، بيد أن الوهن قد أصابها، بعدما تجاوزت السبعين من عمرها، كانت بالماضي تعيش على النذور التي يقدمها أهل القرية للشيخ، ظنًا منهم أنه السبب في حلول الخير، وانفراج الأزمات، أما اليوم فلا توجد أي هبات، فشيخها أصبح مقطوع النذور؛ ولذا تعيش على ما يرسلها أبناؤها من غِذاء.

كان أمام الضريح مقهى للإنترنت، أو كما يطلقون عليه"سايبر" يتجمع فيه شباب القرية كالجراد، يجلسون حول أجهزة الكمبيوتر يتابعون "الفيس بوك"، وينشرون عليه أخبار الوفيات، والمرضى والأفراح، وأحياناً يعيدون نشر موضوعات لآخرين، دون التأكد من صحتها، فتمتزج الحقيقة بالكذب، والإشاعة بالصدق، واليقين بالسراب، وقد شاهد بعض الشباب "حميدة" تقف أمام الضريح تخلع شعرها، وتتكلم وتدعو بصوت عال:

حميدة: ندرًا عليّ يا شيخ "يوسف الغريب" إذا حُرقت أجهزة الكمبيوتر في أنحاء البلدة، وعطلت صفحات "الفيس بوك"، سوف أهب لك خروفًا.

سمع الشباب ما قالت، فانفجروا بالضحك والسخرية، ودخلوا إلى المقهى الإلكتروني ينشرون التعليقات الساخرة، ومنها:

- خروف للشيخ إذا أظهر كرامة، بحرق أجهزة الكمبيوتر بـ"كفر الهوى"
- أم "غريب" سوف تذبح الخروف على نغمات الموسيقى؛ لأن الموسيقى تزيد من لحوم الذبائح.
- "شفعات" تشترط ذبح خروف قبل النذر، وخروفًا بعده.

عادت "حميدة"إلى منزلها بعد أن أشعلت بتصرفها حدة التهكم عليها، وعلى ولدها، وعلم "غريب" بالمساء بما فعلت، راح يسب الشيخ "يوسف الغريب"، وهي ترتجف من ذلك، تضع يدها على فمه كي يصمت، حتى لا تصيبه اللعنات، وعندما شاهد هلعها، التزم الصمت خوفًا عليها، وضمها لصدره يمسح رأسها برفق، فهدأت، واشتعلت القرية بالسخرية من جديد، لتملء فراغ المتسكعين

بهذا الحدث، فعلم القاصي والداني بفعلتها.

في منتصف الليل سمع صوت انفجار شديد، أصيب الجميع بالهلع، وتبين لاحقًا أن السبب في هذا الانفجار هو حدوث قفلة كهربائية بمحول الكهرباء الذي يغذي القرية، فحُرقت الكثير من الأجهزة الكهربائية، بسبب خلل حدث قبل الانفجار، تمثل في تذبذب في شدة التيار، وبعدها بلحظات خرج أهل البلدة بالكشافات المشحونة بالكهرباء يستطلعون الأمر، فجاءهم الخبر بأن محول الكهرباء قد تفحم، وتحوّل إلى ركام، جرّاء ماس كهربائي.

في الصباح ذهبت "حميدة" تسحب خروفًا في يدها، فاستقبلتها "شفعات" بفرحة غامرة، فقد عادت النذور بعد طول انتظار، أطلقت الزغاريد، فتجمعت النسوة تهرول وتزغرد، ودبت الحياة حول الشيخ من جديد، وعادت القرية عن بكرة أبيها تتحدث عن كراماته، وأرجع بعضهم أن سبب ما حل بالبلدة من كوارث؛ إنما يرجع لإهمالهم في إحياء ذكراه.

منذ عقدين لم تقم ليلته بالخميس الأول من شهر أغسطس من كل عام، وقد تصادف أنه تبقى أسبوعان على موعدها، وفي مثل هذه الذكرى كان موكبه بعد صلاة الجمعة التالية لليلة الخميس يجوب القرية من أمام مسجد القرية الكبير حتى الضريح، فقدكان الرجال والشباب والأطفال يرفعون البيارق والأعلام، ويترجلون وراء رجل يركب حصانًا يسحبه درويش، ويمشي على جانبيه درويشان يسندون الراكب حتى لا يسقط وهو يحرك رأسه يمينًا ويسارًا على دقات فرقة موسيقة تقرع الطبول، وتضرب الدفوف بإيقاع صوفي ثابت، والنسوة والبنات يرقُبون الموكب من خلف الشبابيك، أو من فوق أسطح المنازل، وهن يعتقدن حلول البركة بمرور الموكب من أمام منازلهن.

كانوا يطلقون على هذا الرجل الذي يتطوح فوق الحصان كما السكران اسم "الخليفة"، ولا يدري أحد سبب إطلاق هذا الاسم على ذلك الرجل، الذي يتناول حساءً غير معروف يطلقون عليه اسم "الشربة" قبل ركوب الحصان، حتى لا يشعر بدور رأسه من كثرة هزها مع دقات الطبول، وما هو ذلك الشراب الذي

يخرج هذا الرجل عن وعيه؟ هل هو خمر؟ أو نبيذ معتق؟ لا أحد يدري! لم يتجاوز أمل معظم أهل القرية في مثل هذا اليوم سوى السلام على هذا "الخليفة" المزعوم، وتقبيل يده حتى تحل البركة على من يقبلها وعلى آل بيته، باستثناء القليلين الذين يصفونه بالمشعوذ.

بعد الأسبوع الأول من انقطاع الكهرباء، تأكد للجميع أن تركيب محول جديد للقرية ربما يستغرق أكثر من شهر، فارتد المشعوذون عن ترويج الخرافات على"الفيس بوك" عبر تكنولوجيا المعلومات، إلى ترويجها بالقرب من ناصية ضريح الشيخ "يوسف الغريب" اجتمعوا يبددون الوقت في الوهم بالطرق البدائية، كما كانوا يزرعون الخزعبلات في عقول العامة منذ وقت قريب.

جاءت مواكب من البشرإلى الشيخ البالي في مرقده تطلب منه البركة، بعضهم ينذر أن رزق ولده بفرصة عمل سوف يهب أول راتب للشيخ، وآخرون يرجون الشفاء لذويهم بنذر كبير، وفي كل زيارة يصطحب القادم بعضًا من الهبات مثل الدجاج، والفاكهة، وآخرون يحملون الحبوب، والدقيق، حتى امتلأ الفناء الصغير الذي يجاور الضريح بالخيرات، فتبعث "شفعات" بها إلى أولادها.

تحرك الكل نحو إغاثة الشيخ، فقام نجار القرية بتركيب شبابيك وباب جديد للضريح، وقام النقاشون بطلاء حوائطه من الداخل والخارج، أما صاحب معرض "السيراميك" فتطوع بتبليط أرضيات الضريح من الداخل، والفناء الملحق، وقام المنجد بإعادة تنجيد مراتب ووسائد السرير الذي يتوسط الضريح، والغريب أن أحدًا لا يعلم سبب وجود هذا السرير في قبر ميت، وربما لم يخطر هذا السؤال على بال زائر.

في الماضي كانت تقسم النذور والهبات بين ثلاث جماعات، الثلث الأول يذهب إلى"بيومي الزفر" لص المواشي، الذي اشتهر عنه العيش على السرقة، حتى أصبح من أكبر اللصوص بالبر، وبعد رحيله تناقل الورثة حصتهم حتى استقرت عند "شفعات"، والقسم الثاني كان من نصيب حانوتي القرية "عبد الدايم"، والذي

عرف عنه نبش القبور، لسرقة الأكفان الثمينة، والتي يلف بها أجساد الأعيان من أهل القرى لبيعها، ثم انتقل نصيبه إلى حفيده "شفيق الخفير" الذي التحق للعمل خفيرًا نظاميًا بعد أن جفت النذور، أما القسم الثالث كان من نصيب "كعبول النعسان" الخمورجي، الذي عرف عنه كثرة شربه للخمور والكحوليات، وانتقل نصيبه بعد عدة أجيال إلى حفيده"الشحات النعسان" وكان رجلًا دائماً السكر كأجداده، قصير بدين، تنبعث منه رائحة كريهة، ولا يعرف الحياء.

ولم يكن أحد يعلم سببًا لهذه القسمة، حتى عادت النذور على عتبة الشيخ من جديد، فحضر أحفاد الورثة يطلبون حصصهم في هذه النذور، فرفضت "شفعات" أن تعطيهم شيئًا منها؛ لأنها منذ عقدين تقوم على خدمة الضريح وحدها، ولم يقاسموها عناء هذه السنين.

كان سر هذه الشراكة بالماضي أن "بيومي الزفر" جد "شفعات"، دخل يسرق مواشي "شيخ البلد" قُبيل الفجر، فنبحت الكلاب عليه فهرب، ولم يتمكن سوى من سحب الحمار الأعور من زريبة المواشي، وركبه مهرولا، ونظرًا لأن الحمار لايرى في الظلام، صار به نحو بوابة المقابر، وسقط منه في بئرعميقة لساقية قديمة في أرض مهجورة، لشدة ملحوتها صعد من الحفرة"بيومي الزفر" بصعوبة، فشاهد "عبد الدايم" الحنوتي ومعه "كعبول النعسان" يخرجان من حوش "عائلة الطور" وقد سرقا كفن كبيرهم الذي تُوفى منذ يوم، فعرف كل منهم خبيئة الآخر، وعندما سمعوا وقع أقدام شيخ البلد ورجاله يحملون المشاعل للإمساك باللص، اتفقوا على ردم البئر على الحمار والكفن المسروق خشية أن يضبطهم أحد بجسم الجريمة، فينالوا أقصى العقاب، وبسرعة البرق تحرك ثلاثتهم يردمون البئر بكل عزم حتى ردموها، فمر عليهم أهل البلد مع الشروق يتعجبون فعلتهم، فأخبروهم أن الشيخ "يوسف الغريب" قد مات، وأوصاهم بدفنه في هذا المكان.

كان الشيخ "يوسف الغريب" درويشًا طاعنًا في السن، ذقنه شديدة البياض، نحيل الجسد، عيناه لامعتان، غريبًا في تصرفاته، ولاأحد يعلم له بلدًا، يرتدي جلبابًا ممزقًا، وفي رقبته عقد طويل، حباته الكبيرة مصنوعة من خشب،

الجميع يعتقد في أنه مبروك، كان هذا الدرويش يمر كل عام أو عامين أو ثلاثة على القرية، فيتجمع حوله المرضى، وأصحاب الحوائج يطلبون البركة، فيرقي هذا، ويكتب حجابًا لذاك، وعند الفرج ينسبون له الفضل، وقد ذاع صيته عندما تم شفاء ابن "شيخ البلد" ووحيده "رضا" من مرض عضال بعد رقية منه.

وعندما أخبرهم الآفّاقون الثلاثة أنه مات، توقفوا عن متابعة اللصوص، ليبنوا مع اللصوص مقامًا للفقيد، وأصبح ضريح الحمار الذي دُفن حيًا في نظر أهل "كفر الهوى"هو الضريح المقدس.

١١-الوهم الجديد

يرى بعض عقلاء القرية أن الفرق في العقول بين الأمس البعيد، والحاضر فرق كبير، العقول أصبحت أضعف فقد كانت بالماضي تستنير بنور الفطرة، أما اليوم فلم تغير التكنولوجيا الكثير في حياة الخاملين، إلّا بتوفير بعض من المنتجات الصناعية، وبعض من البرامج التلفزيونية التي تبث عبر الفضائيات لاستهلاك الوقت، وبعض من الفنون أكثرها هابط؛ أما ما ينشر على "الفيس بوك"كان يملأ فراغ الشباب العاطلين عن العمل، بالكثير من الأكاذيب، فطمست الحقيقة بالزيف.

مع انفجار محول الكهرباء الذي يغذي القرية، عاش الكثير من الناس في قرية "كفر الهوى"ليلهم في ظلام دامس، كظلام عقولهم المغلقة، فبعد نفاذ البطاريات المشحونة التي تغذي الكشافات الكهربائية؛ توقفت الإضاءة النظيفة، ولم يجد أهل البلدة سوى الشموع للإضاءة.

وبعد انقطاع الكهرباء بقرية "كفر الهوى"، وبطرح عدم القدرة علي متابعة الدش، والإنترنت من حياة أهل القرية لم يتغير الكثير، لقد عادوا يحتضنون التخلف الجاسم فوق صدورهم، بكل صوره البدائية، بأن أحيوا شرور التقاليد البالية، فقد نسي الكثير منهم الكهرباء، وبحكم العادة تعايشوا مع الواقع، يقصون أحداث الماضي، ويكشفون الستر عن أنفسهم بذكر الفضائح القديمة والجديدة، فكل حلقة من البشر باتت تجلس تخوض في أعراض الحلقة التي تجاورها، إلّا قليلاً منهم التزم بيته، وأمسك لسانه عن تتبع عورات الآخرين.

بدأت القرية تعد العدة لإحياء الليلة الكبيرة، وقد بحثوا عن مداح يحي ليلة صاحب الضريح، فلم يجدوا، وأخير أسندت المهمة لـ"شفيق الخفير" فقد كان ذا صوت جميل، ويحفظ بعض التواشيح التي لا يفهم معناها، وأحضروا له فرقة موسيقية متخصصة في موسيقى الإنشاد الصوفي، عازفوها طاعنون في السن، لنصب حلقات يطلقون عليها حلقات الذكر، لا علاقة لها بالذكر من قريب أو بعيد، وعادت قرية "كفر الهوى" تُحي مناسبة قد ماتت منذ أمد بعيد، وذلك بالدجل تارة، وبالوهم تارة أخرى، فذبحوا الذبائح كلٍ على قدر استطاعته، فمنهم من يذبح دجاجة، ومنهم من يذبح أوزة، ومنهم من يذبح خروفًا، وهرول الباعة ينتظرون المساء، وينصبون فرشتهم لبيع الحلوى والحمص واللب والفول السوداني، ولعب الأطفال.

كانت "المقاليع" التي يمسكها الرجال وهم يتطوحون يمينًا ويسارًا على دقات الدفوف قد أصابها الصدأ، فتجمع النسوة بالمنظفات يزيلون طبقات الخبث من فوقها، وكان المقلاع عبارة عن سيخ حديدي قطره واحد سنتيمتر، وطوله نصف متر تقريبًا، وفي نهايته رأس حديدة صغيرة كبيضة الدجاجة، ومعلق بها عدة سلاسل رفيعة، وتنتهي كل سلسلة برأس كحبة العنب.

وعندما حل المساء، وفي الليلة الموعودة تجمع الرجال والنساء للاحتفال بليلة الشيخ المبروك، وقامت "شفعات" بتسليم كل رجل مقلاعًا، يثبت طرفه على كف يده اليمنى، والطرف الآخر على كف يده اليسرى، ومع دقات الدفوف، والطبول، يُلف المقلاع بيديه فتنتصب السلاسل الصغيرة المشبوكة بالرأس البيضاوي كأنها مروحة، وبدأ الحفل برقصة تشبه رقصة "التنورة".

وبعد انتهاء وصلة الرقص بالمقاليع، بدأت وصلة جديدة من وصلات الذكر المزعوم، حيث وقف "شفيق الخفير" ينشد التواشيح، والرجال يتحركون بنصف جسدهم الأعلى يمنًا ويسارًا، على دقات الموسيقى الصوفية، يذكرون الله، ويقولون:

- الله حي ، الله حي

وكلما سقط رجل على الأرض قام بعض الرجال الشداد برفعه، ونقله نحو فناء الضريح وسط زغاريد النساء، فقد كان بعضهم يفسر حالة الإغماء جرّاء

كثرة هز الجسد بقوة؛ بأن الشيخ "يوسف الغريب" قد ناداه ليعطيه البركة، ومع الوقت يتساقط الرجال إعياءً، حتى تنتهي "طبقة الذكر" بالمنشد، وبعض من الرجال المنهكون من المجهود الشاق، دون أن يدري أحد تفسيرًا لماذا لم يطلب صاحب الضريح هؤلاء الباقين دون إغماء.

وفي اليوم التالي حان موعد الموكب الذي سوف يجوب القرية، فتجمع الناس عند المسجد الكبير للحاق بالركب، عندئذ خرج شيخ المسجد يطردهم، وكادوا أن يفتكوا به، تركهم فراراً بحياته، وتراجع عن موقفه عندما وجد نصف الحضور غارقين في الخرافات الشائعة، والنصف الآخر يدخن "السجائر" المحشوة بمخدر "البانجو"، ولكن حدثت معضلة، فلم يجدوا رجلًا يمثل دور الخليفة، أوحصانا ليركبه الخليفة، فأشارت "شفعات" بأن يلبس "شفيق الخفير" زوج ابنتها ملابس الخليفة، ويدور القرية فوق "توكتوك" مكشوف.

كان المنظر شبيهًا بالمسلسلات الهزْلية، البعض خرج يتابع الموكب كي يضحك بسخرية، والبعض مخدرًا بالوهم، والبعض يقلد الساخرين تارة، والواهمين تارات أخرى، بيد أن"كعبول النعسان" وقف يعترض الموكب قرب الضريح ، ويصرخ في الحضور:

- يا بشر لا يوجد في هذا الضريح أي شيوخ، الراقد أسفل التراب ليس بالشيخ "يوسف الغريب"، إنه الحمار الأعور الذي سُرق من شيخ البلد المُتوفي منذ أكثر من مائة عام، وأنتم اليوم تطلبون البركة من حمار تحت الثرى، لا ينفع ولا يضر، والدليل على صدق كلامي أننا كنا نتوارث تقاسم النذور حتى لا يبوح أحدنا بالسر، وما دامت "شفعات"ستحتفظ بالنذور لنفسها لا داعي لكتمان هذا السر، ويمكن نبش هذا الضريح للتأكد، وسوف تجدون جمجمة الحمار الأعورأسفل هذا المقام.

سادت حالة من الذهول بين الناس، إلّا أن "شفيق الخفير" وقف من فوق "التكتوك"مدججًا بجهله وأغراضه المادية، فمن مصلحته أن تستمر تلك الأكذوبة بعد أن تُوج فوق عرش الدجل خليفة للدهماء، فأخذ يخطب في الناس قائلاً:

- أيها الناس لا تسمعوا لهذا السكير الفاجر، حتى وإن كان من أسفل هذا الضريح حمارُ، ما هي المشكلة مادام هذا الحمار مبروك، وله كرامات تظهر منذ عشرات السنين بيننا، ألم تحمل الكثير من السيدات عندما وهبت له النذور؟ لا تنصرفوا عن البركة أسفل هذه القبة، وتمسكوا بشيخكم، وإن كـــان حمــــــارًا، مــــادامــــت لــــه كـــرامــــات.

انتفض نصف من بالموكب ينسحبون من الحفل المزيف، نادمين على الحياة في ظل هذه الخرافات ردحًا طويلاً من الزمن، وبقي المغيبون يهللون، وهم يدورون حول الضريح، كما يدور الطور في الساقية، في طريق دائري لا ينتهي، لم يستوعب الغارقون في الجهل والمخدرات الدرس، وظلوا يدافعون بكل قوة عن ذلك الحمار المدفون بقاع الأرض.

كل هذا يحدث والعمدة "دياب النمر" في سعادة بالغة، فقد تخلص من غريمه "سيف جاد" بإغراقه في إدمان المخدرات، وأودع ما بقي من الساخرين في حضن الضريح يتعلقون في أحبال السراب، وذلك عندما بث بعضًا من رجاله بالقرية يذكِرون الناس ببركات مزعوعة للشيخ صاحب الضريح، فقد علم من "فهد السكران" أن حرق المحول لم يكن سببه ما نذرته "حميدة" للشيخ، إنما بحيلة من المهندس "ضياء" مدير صيانة المحولات الكهربائية، فقد أوعز لأحد الفنيين بتدبير حيلة تؤدي إلى حرق محول الكهرباء الذي يغذي قرية "كفر الهوى" ،حتى ينصرف أهل القرية عن السخرية من العمدة على صفحات "الفيس بوك"، وقد تم تنفيذ الحيلة بدقة، وتم حرق المحول الكهربائي، وسوف يتم عرقلة إصلاحه لمدة شهرين حتى ينسى الناس السخرية من "دياب النمر"على صفحات الشبكة العنكبوتية.

كانت الصدمة شديدة على "حميدة" بيد أنها آفاقت تلعن الوهم الذي عاشته لعدة عقود، وتساءلت بينها وبين نفسها :

- يارب كيف عشتُ أعتقد في كرامات حمارٍ أصبح رمادًا في باطن الأرض؟

كم كنت واهمة ومخدوعة !

جلست يائسة نادمة، ولولا ما سمعته من "كعبول النعسان" لفارقت الحياة وهي مغروسة في حضن الدجل.

أما "غريب" لم يصمت منذ تم إعادة إحياء ذكرى الشيخ المزعوم، فكان يصرخ محذرًا من اتباع النصابين، دون جدوى، لقد تيقن أن لدى الكثير من البشر استعدادًا فطريًا في تصديق الخزعبلات، وأن شيوع الأكاذيب يتطور بتطور التكنولوجيا، فأصبح تسويق الفُجر يتم عبر الإنترنت بدلاً من تناقله بين الأجيال بالحكي، صعدت فوق صفحات "الفيس بوك" الملايين من الأضرحة المقدسة، وكل ضريح يعج بخرافاته وأكاذيبه، للتأثير على سلوك البشر لأهداف متنوعة، والعامة يصدقون ما ينشر بلا فرز أو تفكير، حتى وإن كان المنشور ضد مصالحهم، فرغم الإيجابية المتمثلة في التعارف الإنساني، وحرية التعبير، وتبادل المعلومات، ونقل محتويات الأبحاث العلمية، والكتب الفكرية، والأدبية، عمت العشوائية في ثنايا الحرية، فاختلط الحابل بالنابل، عندما طمس الوجه المشرق للإنترنت بالفوضى بغرس بذور الفتن، وغيرها من شرور فوق باحة الفضاء الإلكتروني.

تذكر "غريب"بمرارة قبيل عودته لمصر كيف تمت دعوته للعمل بإحدى الكتائب الإلكترونية على صفحات الفيس بوك، بالقسم الموجه للعرب، كان عمله لا يتجاوز نصف ساعة باليوم، يقوم خلالها ببث بعض المشاركات، والتعليق على منشورات أخرى بتعليقات مكتوبة باللغة الإنجليزية ومرسلة له، وكان دوره ترجمتها إلى اللغة العربية، كان المحتوي يحض على العنف تارة، وتارة أخرى على بث الأفكار التي تحض على الفتنة الطائفية بين السنة والشيعة، أوالمسلمين والمسحيين بالشرق، وتارة بقلب الحقائق بتصوير الشرفاء خونة ولصوص، واللصوص بالشرفاء.

كان عليه الانسحاب منها مدعيًا أن نظره ضعيف، وأن الطبيب قد منعه من الجلوس على أجهزة الكمبيوتر حتى لا تتفاقم حالته الصحية، وأبلغ المسئول أنه سوف يعود للعمل حال شفائه، وذلك تحسبًا لرد الفعل، فربما تكون تلك المواقع تابعة لأجهزة مخابرات تريد تسوىق أفكار معينة بغية تحقيق هدف محدد، والجهر بمعارضة أهدافها قد يعرضه للتصفية الجسدية، أو تابعة

لحركات متطرفة، انسحب بهدوء، وعزم علي أن يفضح هؤلاء بعد عودته إلي مصر، ولكنه عندما نشر هذه الواقعة بعد رجوعه علي صفحته وفي الكثير من الصفحات العامة لم يلتفت أحد إليها، بل وجد عندما عاد إلى قريته أن أهلها يمارسون تلك الشوشرة الإلكترونية تلقائيا، بتداول الإشاعات على أنها حقيقة، أو بمشاركة المنشورات المضللة القادمة من جهات غير معلومة دون تفكير.

كان "غريب" من القلائل الذين اشتروا مولدات كهربائية صغيرة تعمل بالسولار، بمزرعته، ومنزله، وهذا مكنه من الاتصال بحبيبته "رجاء" خلال هذه الأيام العجاف.

١٢- مولد الأمل

تفرغ "غريب " لمزرعة "الجاموس" بهدف تطبيق فكرته، لقد كان التحدي المقترن بالسخرية سيفًا مسلطًا على رقبته، ومع هذا لم تفتر عزيمته، أو يضربه الوهن، كان يتصرف بحصافة وروية كما بدأ مشروعه، حيث كان يستطلع رأي أهل التخصص في كل كبيرة وصغيرة؛ بغية الوصول للوضع الأمثل، وقبل بناء المزرعة قرر أن يربي الجاموس للحليب؛ لأن ألبانه غنية بالدسم؛ ولأن بيع الحليب سيدر عليه ربحًا وفيرًا.

كان "غريب"يراهن على رفع إنتاجية "الجاموسة" ليصل إنتاجها من١٨ : ٢٠ كيلو من اللبن، بإدخال الموسيقى كعامل مؤثر، وخاصة أن الدوائر الموسيقة غير مكلفة.

طبق التجربة بتشغيل الموسيقى قبل الحليب بساعيتن، بالتزامن مع ضبط التغذية، ولم تظهر أي نتائج خلال الأسبوع الأول، مما آثار قلقه، بيد أن الإنتاج في الأسبوع الثاني زاد فيه إدرار اللبن بمقدار كيلو واحد، وفي الأسبوع الثالث زاد إدرار اللبن بمقدار اثنين كيلو جرام، وعقب نجاح التجربة، اندفعت بعض الصحف وبعض الفضائيات تشيد بالتجربة، وتحولت السخرية إلى إشادة بالفتى ومع نهاية شهر أغسطس كان "غريب" في كامل صحته، وفك الجبس من فوق ذراعه.

وبعد نجاح الفكرة، تم إصلاح محول الكهرباء بإيعاز من "دياب النمر"الذي راق له أن يرى أهل القرية هذا النجاح؛ لأن هذا يدلل على أنه لم يكن مجنونًا بالماضي عندما كان شريكًا في المزرعة، ضرب الندم رأسه على التسرع في فض

الشراكة، فقد أصبح "غريب" من الشخصيات الشهيرة، وموضع تقدير المسئولين، واليوم يستقبله الساخرون منه بالأمس بحفاوة بالغة.

أشعل نجاح الفتى هدير الرغبة في قلب "فاتن" زوجة العمدة بضراوة، فأصبحت تشتاق إليه أشد من السابق، ولم تعد ترى غيره، كانت تتابع حركاته بالمزرعة عبر شرفتها، وعلمت أنه بعد حليب الوجبة المسائية، ينتظر بالمزرعة وحده نحو الساعتين، في استراحة المزرعة، يراجع الحسابات، ومخزون الأعلاف، ويدون متطلبات اليوم التالي؛ حتى ينجزها العمال في الصباح، ولذا عقدت العزم على الهبوط إليه لتشفي شبقها منه، ولكنها تتحين الفرصة المناسبة لذلك، حتى لا يفلت منها لأي سبب.

لم يكن الفتى يرى من النساء سوى حبيبته"رجاء"، فالسحر الذي يتدفق من عينيها كان كالأمواج التي تحمل العاشق برفق فوق بحور النعيم، وكلما ألقت إليه بنظرة يرتوي، فلا يشعر بعدها بالظمأ نحو أنثى أخرى، كانت بسمتها تهل فوق عمره كالدفء في شعاع الشروق، فيتمدد بين الأحلام يقطف الأمل من فوق الربيع الأخضر بين ثنايا عمرها، وكان يراها وكأنها هي الدنيا، فيرى السعادة تتساقط كما الورود من بين شفتيها، عاد للمنزل مشتاقًا إلى سماع صوتها، وقرب العاشرة مساءً فتح صفحته على"الفيس بوك" ليختم اليوم برحيقها عبر الفضاء الإلكتروني، وعندما فتح صفحته وجدها في انتظاره، وقد كتبت له الرسالة التالية:

بنت النيل: حبيبي أنا أنتظر قدومك بفارغ الصبر لمتابعة أحوالك، سرني نجاح مشروعك، حتى أصبحت حديث كل الناس، وأسعدني ثقتك بنفسك، فلم تفتر عزيمتك يوما ما حتى تحقق الهدف، رغم المكايدة، والعوائق، والحسد، وهكذا يكون الفرسان عند التحدي، أحببتك لشخصك، وبهرني فيك قوة الإرادة؛ لأنها الفرق بين الخامل والعامل، مازلت أنتظرك بكل حواسي.

قرأ "غريب" رسالتها بجوارحه، فكل غايته أن يكون عند حسن ظنها، وألا يخذلها، فرد عليها لفوره:

ابن النيل: حبيبتي، أنا أستمد من حبك العزيمة، ولا أهاب منازلة الموت من أجلك، فحياتي بدونك كالعدم، لأني ذُبت في العشق العفيف عندما لمست فيكي الطهارة بروحي، لن أتخلى عن حبك، وسوف أجدد طلب يدك من أبيكِ مرة أخرى، خلال الأسابيع القليلة القادمة، بيد أني اشتقت لرؤياك، والحديث معك وجهًا لوجه، مارأيك في أن نلتقي الثلاثاء القادم بعد يومين من الآن، لنقضي يومًا في أحضان النيل بين صفحات النهر، والطبيعة الخلابة.

-بنت النيل: أشتاق بشدة لمثل هذا اللقاء، وسوف أدبر الأمر، حتى تظللنا نسائم الحب، فما أحلى صحبتك!!

ابن النيل:اتفقنا، وسوف أنتظرك عند الحديقة الكبيرة بالقناطر الخيرىة، بجوار مقعد شجرتنا التي تحضن النهر بأغصانها الخضراء.

مر الوقت على العاشقين بطيئًا، كأن الثواني أصبحت دهرًا، وفي الموعد المحدد، وأسفل الشجرة العتيقة جاءت "رجاء" كالنور فوق حلل الربيع، فنهض "غريب" يستقبلها بأغصان المحبة الصادقة، تشابكت الأيدي، فنزقت الأنامل الشوق كالسيل الغزير فوق الأرواح، ساد الصمت فوق الشفاه، جذبها لتجلس بجواره فجلست هينة لينة، فشعر بأن الحنان يظلله من فوقه، ويحمله من تحته، ويغشاه عن يمينه ويغطيه من يساره، كانت لغة الكلام بالهمس والنظرات، أما الأماني فقد أشرقت تتعانق كأنها القبلات، وسادت هيبة المحبين، فخشعت الأشجار من حولهم تقدس طهارة هذا الحب، ثم رقصت أوراقها تزف القلبين بالهواء العليل، وكأن النبات والجماد يميز بين الصدق والزيف، وقام الحبيبان يتجولان بين أجمل أنواع الأشجار والحدائق في العالم، كان الجو شديد الصفاء، والبهجة فوق الشفاة.وجدت"رجاء" في نفسها بعضًا من الفضول كي تعرف بعضًا من أسرار هذه المدينة الخلّابة، القابعة كالعروس فوق قمة الدلتا، على بعد ٢٢ كيلومترًا من القاهرة، فراحت تسأل حبيبها عن مدينة القناطر الخيرية، وهو يجيبها على كل سؤال.

وهكذا أنفق الحبيبان الوقت في الحب والحوار الثقافي والاجتماعي، حتى جذبهم الشوق نحو النيل، فركبا قاربًا حديثًا، ليتجولا فوق صفحة النهر، كان المنظر بديعًا، وكأن الجمال قد نسج في أرجاء المكان نسجًا، تظهر للناظر الأشجار الخضراء الفريدة، وهي تلتحف بالطبيعة، وتعانق الطيور،وهي تغرد

تحت السماء للصفاء، كانت اللحظات السعيدة كما هي عادتها تمر كالبرق، فمرت ساعتان، وهما فوق الماء يتبادلان اِرْتِشَافُ الحب بقلبيهما.

خرجا لتناول الغذاء بأحد المطاعم الفاخرة، ورغم أن أصناف الطعام كثيرة أمامهما، كانا يأكلان ببطء، ومع أنهما لم يأكلا منذ الصباح، كانا يشعران بالزهد نحو الطعام، فقد طغى الجوع إلى الحنان على ما سواه من جوع ، وتوقف الكلام، ولم يعد للحروف معنى أمام الشوق الجارف، وعادا قبيل العصر إلى القرية كلاهما مغروس في داخله رغبة تفور كالبركان، حتى بعد أن أدلف كل منهم إلى منزله، لم يستطع كل منهما التوقف عن التفكير بالآخر.

تمرالأيام على الحبيبين أطول من السنين، ولكنهما على تواصل دائم على صفحات"الفيسبوك"، يبردان الشوق بعذوبة الحديث، وكانا يصبران نفسيهما؛ بأن معسول الكلام قد يتلاشي لوتم الزواج مبكرًا كعادة الكثير من الأزواج، فحلاوة الحب ربما تخفت بعد أن يذبح الشوق بالوصال فوق الوسائد، كان الحبيبان يخشيان من ذلك المصير، فهما يريدان لحبهما أن يظل مخضبًا بالنور، والدفء طوال العمر.

وفي المساء دخل "غريب"على أمه راجيًا منها تكرار طلبها ليد "رجاء" مرة أخرى، مسحت الأم رأس ولدها برفق، ووعدته بذلك شريطة الانتظار بضع أسابيع، فهي تعلم أن "شريف حسونة الفقي" رجل دقيق في قرارته، ويفكر في الأمور بميزان العقل، فقد عرفت عنه شدة التريث، وسينتهي به الحال إلى مباركة هذا الزواج، فنظرت إلى "غريب" مبتسمة :

- حميدة: لا تقلق يا ولدي رجاء لك، وأنت لها.

-غريب: أتمنى ذلك يا أمي فأنا أحبها حبًا شديد.

- حميدة: أمها "سعاد" تعرف بحبكما الطاهر، وننسق معًا لإقناع "شريف حسونة الفقي" بالموافقة.

- غريب: متى يأتي هذا اليوم يا أمي ؟

-حميدة: هو آت عما قريب.

١٣ـ النبل والخسة

كان"غريب" يتابع صفحات "الفيس بوك" لفت نظره غياب تعليقات "سيف جاد" الحادة، منذ فترة طويلة، فمن غير الطبيعي أن يتوقف عن الهجوم عليه وإيذائه، وذات مساء وهو عائد من مزرعته وجد شخصًا هزيلاً يسند ظهر للحائط ويصرخ بألم شديد، في البداية ظنه مريضًا يطلب المساعدة فتوقف، وتحرك نحوه يستطلع الخبر، فقابله "شفيق الخفير" في منتصف الطريق يخبره بأن هذا الشخص هو"سيف جاد" يعاني من آثار الإدمان، ولن يهدأ إلّا إذا أخذ جرعة من الهروين.

أصابه الذهول، وشعر بالآلم جرّاء كبوة غريمه، وأخذ يتمتم في سره يلعن الإدمان وتجار السموم، تقدم نحوه يواسيه ويمسح فوق رأسه برفق، فانحنى"سيف جاد" يقبل حذاءه يطلب منه النجدة، ويتوسل منه ثمن الجرعة حتى يهدأ، تملكته الحيرة، ولم يدر كيف يتصرف، فإن منحه المال سوف يدفعه نحو الشر، وإن منع عنه النقود سوف ينهش الألم جسده، فحسم أمره بسرعة، بأن اشترط عليه المساعدة بالمال في هذه المرة فقط، مقابل الموافقة على الذهاب به إلى مركز معالجة الإدمان بالقاهرة غدًا، ومن شدة الألم وافق على فوره.

جذب"سيف جاد" المال من يده جذبًا، وانطلق بسرعة يهرول يقصد بائع الهروين بالمركزعلى بعد كيلو مترات من القرية، وبعد ساعة يرجع إلى القرية، وقد عاد إليه بعض رشده، حينها تعجب من كرم أخلاق الفتى الذي طالما أساء إليه.

وفي اليوم التالي، مع الصباح الباكرأخذه"غريب"بسيارته إلى القاهرة

لعلاجه بأحد مراكز علاج الإدمان على نفقته الخاصة، وذلك حتى يضمن له حسن الرعاية، كان "سيف جاد" طوال الطريق يخفض رأسه حياءً من الفتى، فلم تمتد إليه من قبل يد كهذه، ولم يعبأ به أحد سوى هذا النبيل، شعر بالخجل من نفسه، وخاصة عندما بدأ"غريب" في الحديث معه يواسيه طالبًا منه الصبر على هذا البلاء.

شعر "سيف جاد" أن رفيقه يتمتع بنبل نادر الوجود، حاول أن يعتذر عما بدر منه في الماضي، فبادره الفتى يعفو بقلبه الطاهر، ويطالبه بأن ينسى كل ما سبق، ويداعبه لرفع معنوياته، ويبث الأمل في صدره بعذب الحديث، حتى وصلا إلى المستشفى، وكشف عليه الطبيب المختص، وقبل بدء إجراءات العلاج حرر "غريب" شيكًا بدفعة مالية كبيرة تحت الحساب، وتم إدخاله إلى المستشفى، وبعد أن أوصى الأطباء والممرضات، والممرضين عليه، عاد نحوه فأوصاه بالالتزام ببرامج العلاج، حتى تم الشفاء وبعدها عاد إلى القرية.

كان"شفيق الخفير" قد زف الخبر في القرية كلها كالرهوان، وجهر الناس "بكفر الهوى" بفضائل "غريب" ومميزاته، فقد كان يوزع نصف الزيادة في الألبان جرّاء استخدام الموسيقي بالمزرعة على فقراء القرية يوميًا، في وجبتي الصباح والمساء، ومد يد العون بإغاثة المحتاجين ببعض من المال، وعيادة بعض المرضى حاملا لهم بعض العسل من مزرعته، وظل الناس يتناقلون أخباره الطيبة طيلة الأسبوع حتى وصلت إلى مسمع "شريف حسونة الفقي" أبو حبيبته، فسر بذلك أشد ما يكون السرور، وتأكد من صفاء قلبه، فمن كان بارًا بعدوه، سيكون ملاكًا مع زوجته، وفي المساء هبط بنفسه إلى"حميدة" يبلغها أنه قد وافق على زواج ابنته من ولدها "غريب"، فعم الفرح في قلب الحبيبين، وبعدها مباشرة ذهب"غريب" وأمه للاتفاق على تفاصيل الزواج، وبعد أن فُكت العقدة الكؤود، جاء الفرج من حيث لا يحتسبان.

استقبلت "رجاء" حبيبها "غريب" وأمه بترحاب شديد، وارتباك أشد، كادت من السعادة أن تطير كالفراشة، قدمت لهما عصير الفاكهة الطازجة، وبعدها ذهبت لتضع طبق الفواكه أمامهما، وظلت كذلك طوال الزيارة ترحب بهما

مبتسمة، تارة تقدم القهوة، وتارة تقدم الشاي، وعندما بدأ الحديث التقليدي حول متطلبات العروس من شبكة ومهر، وجهاز، أغلق "شريف حسونة الفقي" هذا الباب قائلاً :

- شريف: يكفيني رجل حسن الخلق، وما عدا ذلك لا يهمني.

- غريب: يا عمي قدرها عندي أغلي من روحي، وسوف أقيم لها عرسًا لا مثيل له.

- شريف: لا داعي للمبالغة، كن بسيطًا في كل شيئ، حتى لا يقلدك أهل القرية من الفقراء، فتصعب عليهم متطلبات الزواج.

وبعد الاتفاق على كافة التفاصيل، عمت الفرحة في القلبين المشتاقين لدفء الحنان، وأشرق النورينبعث من العيون، ومن فرط السعادة تعانقت نظرات الحبيبين يتساقط منها الضياء، كأنهما يشعلان سراج الحب بروحيهما، فسمع الجميع صوت العشق، كأنهما يصرخان للجهر بالحب، ارتبكت أمه"حميدة"من فصاحة البوح في العيون، فكانتمن فينة لآخرى تقرصه في فخذه حتى لا يبالغ في النظر نحو حبيبته، وعلى الجانب الآخر تميل "سعاد" نحو ابنتها هامسة تطلب منها أن تتمالك نفسها بغض نظرها عن الفتى.

لم يستجب كلاهما للملاحظات، فذابت الكلمات العذبة تنهمر في النظرات الصامته، كأن الحبيبين يتحدثان بلغة جديدة لا تحتاج إلى من يفك شفراتها، إن النظرات سطرت في عالم الغرام نغمًا تعزفه الحواس بعبق الحب الطاهر، ربما انفصلاعن الزمن لبضع دقائق، وذهبا نحو رحلة محفوفة بالورود في حضن الخيال الفسيح، فللحبيبين شفرات مقروءة، وأخرى لا تترجم.

وعلى الجانب الآخر في عالم الصراع المحتدم بالمرارة أدى نجاح تجربة استخدام الموسيقى بالمزرعة إلى شديد الندم لدى"دياب النمر"، وزاد سخطه على من تسبب في ذلك، فقد ضاعت منه فرصة ذهبية لغسل أمواله القذرة، وخسر مجالا للفخر والتباهي، فعادت بواطن الحقد الدفين تطفو فوق وجهه،

فقد حصد "غريب" حبًا توجه فوق القلوب أميرًا، مقابل موجة من الكراهية تولدت ضد"دياب النمر"، بسبب تخاذله وانسحابه من الشراكة، واحتدم غضبه من "غريب"بسبب قيامه بعلاج "سيف جاد"، وتعجب كيف للفتى أن يترفق بمن أساء الأدب نحوه، ونحو الجميع.

لم يكن للعمدة المزيف أن يدرك معنى السماحة، فمن الصعب على تجار السموم أن يستوعبوا القيم الإنسانية؛ لأنهم عاشوا يفتكون بالإنسانية، ويزرعون المرض والموت في أعمار البشر زرعًا، ومن أجل حصاد الأموال المصكوكة بالدماء، يدمغون ذاكرة الشعوب بالفناء، ويحولونها هشيمًا تذروه الرياح، بتغييبها عن الوعي، فمثل هؤلاء الخونة، أشد من الطاعون فتكًا بالناس، لا مشاعر لديهم، ويتملكهم الفجور في الخصومة، كما يتملك الشيطان المخبولين بالمس.

وكأن القدر ينادي على الغدر بالغدر، فقد حان موعد عقد الصفقة السنوية التي يُبرمها"دياب النمر" في آخر أكتوبر من كل عام حول حصته من المخدرات، فاستقل سيارته، وودع زوجته قاصدًا الساحل الشمالي للقاء المورد للاتفاق على كيفية الدفع والاستلام، وعندما وصل قرب الظهيرة، أدلف نحو فيلا مستأجرة لقضاء أسبوع بها، لفت نظره أن الفيلا في مكان بعيد عن العمران ومحكمة التأمين، أبوابها ونوافذها محاطة بسياج حديدي يمنع عتاة اللصوص من اقتحامها، أسعده شدة التأمين، وشكر السمسار "عبده مصالح" الذي أوجد له هذه الفيلا.

كان "سرحان الأعسر" قد جند هذا السمسار بالمال لينفذ خطة الخلاص من "دياب النمر" بحرق الفيلا به، كانت فكرة شديدة البشاعة، وفي المساء بعد الساعة العاشرة حان وقت تنفيذ الخطة، فاتصل به "عبده مصالح" فرد عليه وهو مستلق على ظهره يتابع الدش، فنهض يرد عليه:

- عبده مصالح: سيدي "دياب النمر"نسيت أن أخبرك بأن أحدًا سأل عنك.

دياب النمر: من هو؟

-عبده مصالح: يقول أن اسمه ابن الليل.

دياب النمر: لا أتذكرأحدًا بهذا الاسم (لحظة صمت) ماذا يرىد؟.

عبده مصالح: يرىد مني أن أخبرك أن الدنيا يوم لك ويوم عليك، وقد دارالزمن من اليوم عليك.

دياب النمر: ما هذا الكلام الغريب، ومن هو ذلك الوغد الذي يهددني؟

عبده مصالح: يقول إنه صاحب الرمانة الحمراء.

وبعد انتهاء الحوار تذكر كل شيء، تذكر أن ابن الليل كان الاسم الحركي لـ"سرحان الأعسر" عندما كانا يسرقان في شبابهما محلات الذهب، و"الرمانة الحمراء" هو اسم حركي آخر لمحل الذهب الأخير الذي سرقاه معاً منذ أمد بعيد في مدينة الإسكندرية، وبعدها كونا رأس المال اللازم لتجارة المخدرات، وافترقا بعدها بسبب الصراع على"فاتن" بإزاحة "سرحان الأعسر" بعد تدبير قضية آداب له.

نهض "دياب النمر" مذعورًا، فقد ظن أن الماضي قد مات، ولكنه عاد في هذه الليلة، لتبدأ جولة جديدة مجهولة العواقب، نهض يتأكد من غلق النوافذ والأبواب، فقد كان يعلم قسوة خصمه، بيد أن "عبده مصالح" كان قد أغلق البوابة من الخارج بإحكام، وفتح أنبوبتي البوتاجاز، وبمجرد الضغط على مفتاح الكهرباء سوف تشعل الشرارة الكهربائية الصغيرة النار في المكان المرشوش ببدرة شديدة الاشتعال، خرج من غرفته، فوجد رائحة الغاز الخانقة تملأ "بهو الفيلا"، وحتى يحكم غلق كل المنافذ، والأبواب، والشبابيك، ضغط "دياب النمر"علي مفتاح الكهرباء ليرى، فانبعثت شرارة صغيرة من المفتاح أشعلت النيران في المكان برمته، اتجه يجري نحو الباب للفرار بحياته، وجد الباب مغلقًا بجنازير حديدية، رجع إلى الغرفة كي يقفز من الشرفة؛ وجدها محكمة الغلق بالحديد، فأخذ يصرخ :

- دياب النمر: لماذا هذه القسوة في القتل يا "سرحان" ؟ أيها الوغد لم تجد

سوى الحرق بالنار، (ترفع الصرخات مقترنة بالبكاء) ظننتك نسيت، لماذا لم تسماحني كما سامح "غريب" غريمه "سيف جاد" ؟ الآن أدركت قدرك يا "غريب" وقدر هذا الوغد من بني جنسي.

ارتفعت النيران بالفيلا تأكل ما فيها من أثاث، وظل "دياب النمر" يصرخ حتى مات متفحماً، وأصبحت الفيلا كومًا من الرماد، وفي الصباح جاءت الشرطة ولم تستطع فك خيوط الجريمة، فقد كان "عبده مصالح" اسماً وهميًا، نقلت بقايا عظامه للدفن في قرية "كفر الهوى" بعد أن صرّح الطبيب الشرعي بدفن بقايا الجثة، فعادت بعض عظامه ملفوفة في الكفن.

وفي سرادق العزاء حضر "سرحان الأعسر" يقدم واجب العزاء، فاستقبله "فهد السكران" بترحاب وريبة، بسبب حضوره، وتساءل بينه وبين نفسه:

-هل كان له دور في وفاة دياب ؟.

بيد أنه أخفى هذا الشك، فلا يوجد ما يؤكده، وأيضًا خوفًا من بطشه، فهو اليوم الرجل الكبير الذي يحرك أسواق المخدرات بإشارة من يده، وأيضًا ربما يكون مظلومًا، ولكن عندما ألح في طلبه بالدخول لمواساة "فاتن" وعزائها، عاد الشك مرة أخرى يساوره بقوة، فهو صاحب المصلحة في اختفاء "دياب النمر" من على وجه الأرض.

وعندما دخل معه لعزاء "فاتن" كانت نظراته نحوها مفضوحة، ولم تردعه هبة الموت، وظل يتفحصها من رأسها حتى إخمص قدميها دون حياء، كان يتطلع فيها بشدة ويبلع ريقه بنهم من شدة الشوق نحوها، ثار الدم غيرةً في عروق عمها "فهد السكران" فجذبه إلى الخارج، وبعد أن تأكد من أنه مازال يريد ابنة أخيه ولم ينسىها، زادت حيرته، وبات لا يعلم كيف يتصرف معه إذا جاء يطلب يدها، أو كيف يواجه مثل هذا المأزق ؟

١٤- الرغبات الملتهبة

كانت رهبة الحادث تثير الآسى، وقد تعاطف أهل القرية عن بكرة أبيهم مع "دياب النمر" لا لشخصه، ولكن لبشاعة حرقه فالطريقة التي مات بها مازالت لغزًا مستعصيًا على الحل، ومع الأيام رويدًا رويدًا انصرفوا عن الموضوع يفكرون في موضوع آخر كالعادة، فالآلام القديمة تطمسها الأحداث الجديدة.

ولم يمض يومان على دفن الجثة حتى جاء "المأمور" يقدم واجب العزاء، ويعرض على"فاتن" تقديم أوراقها لمنصب العمودية خليفة لزوجها الراحل، راقت الفكرة لها ؛لأنها ستصبح صاحبة النفوذ، وسوف يمكنها المنصب من الحركة بحرية، وقد أدركت أن المنصب الجديد يتطلب منها زيارة"المأمور" في شقته؛ حتى يوقع طلب التعيين بطريقته الخاصة، كما تم بالماضي عندما عين زوجها لهذا المنصب، ولكنها على غير العادة أحست بزهد في إقامة أي علاقة جديدة مع أي رجل، فطلبت منه إتمام إجراءات التعيين أولاً، على أن تذهب إليه بعد أن تتولى مهام العمودية.

طار الخبر كالبرق ، فـي "كفر الهوى" فالأخبار في هذه البلدة لا تنتظرحتى صباح اليوم التالي، وبمجرد حدوثها تنتشر في لحظات، وعلم القاصي والداني بأمر العمدة الجديدة، فانقسمت القريةإلى نصفين، النصف الأول معظمهم من الرجال، ويرفضون أن تنتقل العمودية إلى سيدة، خشية أن تُعَير البلدة من القرى المجاورة بأنها بلا رجال، والنصف الآخر معظمهم من النسوة، ويؤيدن بشدة تولي "فاتن" للمنصب، ويبررن ذلك بأن السيدة لها نفس حقوق الرجل، ولا فرق بين رجل وامرأة إلّا برجاحة العقل، وسادت حالة من الهرج والمرج.

كان "شفيق الخفير" يتزعم المعارضة رافضًا بشدة أن تكون عمدة القرية سيدة، ويتبعه في ذلك بعض الدراويش الجدد من أتباع ضريح الشيخ "يوسف الغريب"، وانطلقت بعض العبارات الدارجة تنتشر لتسوق تلك الممانعة، مثل مقولة العوام: "مشورة المرأة وإن صحت بخراب سنة" ،ومقولة:"المرأة مالها إلا دارها"، ومقولة: "المرأة شعر طويل وعقل قصير"، ومقولة:"الشيطان أستاذ الرجل وتلميذ المرأة"ومقولة: "إن كيدهن عظيم".

رأى البعض من الفريق الرافض لتولي "فاتن" منصب العمودية؛ مبني على أنها غير مؤهلة لهذا المنصب، بغض النظر عن جنسها، فهي لا تجيد سوى إلهاب المشاعر المكبوتة لدى الرجال، ولا علاقة لها بالعمل العام، ومصدر ثروتها مازال مجهولا، وأصحاب هذا الرأي رغم أنهم أقلية معدودة، لايرفضون حق المرأة في العمل العام طبقًا لمبدأ الكفاءة.

ومنذ أن تقدمت "فاتن" بأوراقها لشغل المنصب، التف الناس حول بعضهم البعض يحررون الشكاوي ضدها إلى جهات أعلى، وضد المأمور، فقد علموا أنه سوف يزكيها كما دعم زوجها الراحل، فارتبك المشهد، وأصبح الأمر أكثر صعوبة من ذي قبل، خاصة بعد أن حشد "الخفير شفيق" حوله العشرات يحررون الشكاوى بشكل شبه يومي.

هذا الرفض جعلها تتشبث بالفكرة التي لم تخطر لها على بال من قبل، وأصبحت تسعى للفوز بالمنصب بأي وسيلة، وبدأت تخطط بدهاء شديد لذلك، فأوعزت إلى من يؤيدها إلى تحرير العشرات من الخطابات التي تزكيها، حتى تفرغ التأثير من خطابات معارضيها، وأخذت المشكلة بعدًا جماهيرياً.

ومن جانب آخر لم يتوقف "سرحان الأعسر" عن متابعة أخبار معشوقته، فكان ينزل كل يوم إلى القرية، وكل مرة بحجة جديدة، وكلما أغلقت "فاتن" في وجهه بابًا فتح بابًا آخر، لم تكن تستريح له، بيد أنه بهداياه وتوسطه في طرح المشكلة إعلاميًا من خلال تجنيد بعض المعدين في برامج "التوك شو" بالمال، جعلها تلين معه، وخاصة بعد أن طرحت بعض الفضائيات مشكلة الصراع على منصب العمودية بالقرية، على أنها قضية من قضايا المرأة، فانطلقت الكثير من الجمعيات الحقوقية تسوق الأمرعلى أنه نوع من الاضطهاد الحاد،

والذي يتمثل في حرمان النساء من حقوق المواطنة، والتفتت الإدارة إلى تلك القضية من منظور جديد، فتريثت في القرار بإرجاء الأمر حتى تتخذ الموقف الصحيح.

بيد أن هذه المشكلة قد مكنت "سرحان الأعسر" من تخفيف حدة استياء "فاتن" منه، وتغيرت نحوه تدريجيا، وخاصة بعدما أغواها برنين المال، عندما عرض عليها تصريف حصة زوجها في توزيع المخدرات كأنه موجود، وتسليمها كامل الأرباح، فأمسك بمفتاح عقلها للوصول إلى قلبها فيما بعد، فانقسمت مشطورة إلى نصفين، نصف يهرول نحو المال، ونصف معجون بالرغبة يذوب نحو الفتى "غريب".

لقد طرأ شيئ جديد على شخصيتها، بأن فقدت الإحساس بكل الرجال، فيما عدا رجل واحد، فكما كان يلهث وراءها "سرحان الأعسر"يجتث الأرواح من فوق الأرض حتى ينالها، تلهث هي الأخرى وراء "غريب" بعمرها حتى تناله.هذه الدائرة المغلقة جعلت كلاهما كمن يدور حول السراب يعتقد أنه الماء، والماء يأبى أن يتدفق من ينابيعه.

تحررت "فاتن" من حزنها، بعد أقل من أسبوعين من حادث الوفاة المفجع وعادت تفكر في "غريب"بشوق جارف، كأنها مراهقة، تتملكها أشواق عنيفة نحو الفتى، وظلت تتبعه تارة بالنظر إليه من شرفتها، وتارة تتحدث معه في الهاتف، وتارة أخرى تطلب منه الدعم في منصب العمودية، كان يتهرب من الحديث إليها، فلا يرد على أرقامها حين تظهر على الشاشة، وإذا رآها في طريق يسرع بتغيير وجهته هربًا من لقائها، وخاصة بعد أن سمعها عدة مرات تهمس في أُذنه بإيحاءات جنسية صريحة، وذلك وفاءً بعهد الهوى مع حبيبته.

في مساء ليلة عصيبة، وبعد الثامنة مساءً، دخلت عليه"فاتن" بمكتبه في المزرعة، وأسقطت عباءتها على الأرض تراوض الفتى عن نفسها، ظهرت معالم جسدها المشوق، أسفل قميص النوم الشفاف كما النار تشعل الرغبة في الوجد، شعر بجفاف اللعاب في فمه من شدة الإثارة، وتصبب العرق منه دون أن يطفئ حرارة المشاعر، كان يشعر أن مفاصله مفككة، فلا يقوى على صدها، وتصدعت

مقاومته أمام جرأتها الزائدة، وعندما تمايلت أمامه كما غصن البان، تهدمت فكرة المقاومة لديه، تذكر أنه رأى نفس الحركات الملتهبة في الماضي من امرأة أخرى، عندما استدرجته بها مدام "ماري" في إيطاليا منذ بضع سنوات، وكأن الإغواء لغة عالمية، لا فرق فيه بين أنثى شرقية وأخرى غربية.

وجه الشبه بين الانثتين أنهما كانتا أربعينيتين عند إغوائه، ولذيذتين، وغضتين بضتين، بيد أن المصرية كانت أكثر حرارة وإثارة، شيطانة ترتدي ثوب أنثى، أما الإيطالية فكانت أكثر إنسانية، امرأة تكسوها الرقة، وينبع من قلبها العطاء.

وعندما أصبح الفتى بين قاب قوسين أو أدنى من الزلل، تذكر "رجاء" وعهده معها، فعاد لرشده بأن ضغط بشدة وعصبية على جرس يستدعي حارس المزرعة"عادل" فدخل مسرعًا، فبهتت الملتاعة من دخوله، فانحنت ترفع العباءة تلف جسدها، وتلعن فعلته، وخرجت"فاتن" تجرذيول الحسرة جرّاء ما حدث، وعقدت العزم على أن تعود إليه مرة أخرى بتدبير محكم.

وبعد خروجها أوصى"غريب" العامل بعدم السماح لهذه المرأة بالدخول إليه مرة أخرى، فوعده بذلك، ورفع هاتفه يخبر خطيبته بما حدث، فقد كان يخبرها بكل صغيرة وكبيرة عندما يبعث لها الرسائل على"الفيس بوك"، وفي المساء عند عودته للمنزل وجد أن "رجاء" قد كتبت له هذه الرسالة:

بنت النيل: حبيبي احذر من هذه المرأة اللعوب، فهي غامضة كزوجها الراحل، واعلم أن كيدها مؤلم، ولذا عندما تصدها ادفعها عنك برفق؛ حتى لا تطلق عليك شيطان الغدر، فتصاب بمكروه، حبيبي سلامتك عندي فوق غيرتي عليك، وعشقي لك أكبر من صليل الرغبة المزروعة نحوك في قلبي، أحذرك من غدر الفاجرة إذا ضربها الهوى، فهي كالأفعى أن لم تتحاشاها سوف تلدغك بالسم، فكن معها كالحاوي تروضها تارة بحسن التجاهل، وتارة بحسن الخلق، وتارة بالهروب منها، فربما تيأس منك، ويصرف الله عنك شرها.

قرأ "غريب" الرسالة فرد عليها:

ابن النيل: حبيبتي لقد وعدتك بعد انتهاء علاقتي بمدام "ماري" أثناء تواجدي في "إيطاليا" بأني لك فقط، وكانت الغلطة الأولى في حياتي هي الغلطة الأخيرة، وهذا العهد أصدق عهد قطعته على نفسي، ويساوي حياتي، فلا تقلقي عليّ، ومادمت أذوب فيكِ بطهر لن أخشى في سبيل الوفاء بحبك من الموت نفسه، أشتاق إلى لقائك في الغد، وسوف أنتظرك منذ الصباح عند شجرتنا العتيقة على ضفاف النيل لنقضي يومًا جديدًا مع نسمات النهر الخالد.

وفي الموعد التقى الحبيبان بعلم الأسرتين، فمنذ الخطوبة وهما يلتقيان مرة بالخارج كل أسبوع، ويزورهم "غريب" بالمنزل مرة في الأسبوع، وبعد مداولات ومناقشات تحدد موعد الزفاف للعروسين في نهاية الخميس الأول من شهر يناير، وباقي شهر ونصف على موعد الزواج الميمون.

في منتصف شهر ديسمبر خرج "سيف جاد" من المستشفى، وقد شُفي من براثن الإدمان، وعاد إلى القرية، ولكنه ظل بدون عمل، فقد فُصل من عمله ببنك التسليف الزراعي بسبب غيابه، وأقام دعوة قضائية للرجوع إلى العمل، ولكن هذه الدعوة سوف تأخذ وقتًا طويلاً، وربما ترفض، وبمجرد أن علم "غريب" بخروجه ذهب إليه وعينه كاتب حسابات للمزرعة، وقبل قدومه للعمل بيومين حدثت مشكلة بالمزرعة، فقد سُرق مبلغ ٣ آلاف جنيه من غرفة المكتب، فاقترح عليه"سيف جاد" تشغيل برنامج سري للمراقبة بالكاميرات، وذلك بمكتبه، وعنبر الإنتاج، بهدف تسجيل كل ما يدور بالمزرعة، وتفريغ الأشرطة المسجلة عند الطوارئ، وتم تنفيذ هذا الاقتراح، لمعرفة من هو اللص القادم.

١٥- المفاجأة

مازالت مدام "ماري" في إيطاليا تعيش على ذكرى حبها لـ "غريب" ولولا الوفاء بعهدها معه بقطع العلاقة ما انقطعت عنه، بأن تراسله أو تذهب إليه لتزوره بمصر، كان قلبها يخفق بحبه، وتتوق لرؤياه بأية وسيلة، وبعد أن تركها وسافر إلى "هولندا" بقيت تعيش على ذكرى الأيام الجميلية التي قضتها معه، ولكنها بعد السفر بأسبوعين اكتشف أن "غريب" ترك بأحشائها أمانة، شعرت بفرحة غامرة عندما علمت أن هذه الأمانة هي جنين يتحرك بداخلها، في البداية أصابها الذهول، فقد أخبرها الأطباء سابقًا أنها لن تنجب، واليوم أصبحت حاملاً، وظلت تتساءل ماذا حدث؟ حتى فسر لها المختصون ذلك لاحقًا بأن الحمل في حالتها كان نادرًا، ولا تتجاوز نسبته الواحد في الألف، ولذا لم يشأ الأطباء تركها معلقة بين احتمالات ضئيلة، حتى لا تعيش في الوهم، ولذا فضلوا غلق هذا الباب أمامها.

وبعد أن تيقنت من صحة الخبر، وسلامة الجنين، عاشت في سعادة بالغة؛ تشكر الأيام التي وضعت في طريقها هذا الشاب المصري الرقيق، ليهبها الأمل المفقود، فرحت لأن رغبتها في الأمومة سوف تتحقق عما قريب، وخاصة بعد أن عرفت من خلال جهاز "السونار" أن الجنين ذكر، وسوف يكون أخًا للصغيرة "هند"، فكرت في الذهاب إلى "غريب" في "هولندا" لتخبره، بيد أنها تراجعت حتى لا تغضبه، فربما يحزن؛ لأن ذلك سوف يؤثر على حبه المقدس، سيجرح حبيبته "رجاء"إذا علمت، وربما يعيش مقهورًا بالذنب إذا أخفي الأمر في صدره، ولذا فضلت إخفاء هذا السر عنه حتى لا تربكه.

أخذت تفكر في اسم للمولود القادم، على أن يكون اسمًا ذا طبيعة مصرية، وعربية، وغربية، وإنسانية، فأحصت معظم الأسماء القديمة والجديدة، وبعد طول تفكير اهتدت إلى تسمية المولود بـ "إبراهيم" كاسم يتفق حوله اليهود، والمسيحيون، والمسلمون، وكأنها أرادت بهذا الاسم أن تنشر ثقافة التعايش بسلام بين الجميع، وبعد الولادة حاول أهلها كتابة الطفل في الأوراق الرسمية باسم جده لأمه، حتى لا يحن عندما يكبر نحو مصر، ولكنها رفضت وكتبته باسم أبيه.

كانت ملامح المولود شرقية، وبشرته خمرية، وعيناه زرقاوان، وشعره شديد السواد، فامتزج فيه سحر الشرق، بجمال الغرب، وشب الصغير بين أقرانه في الحضانة، والمدرسة معروفًا باسم " المصري" كنايةً، و"الفرعون" تدليلاً، ونمت لديه موهبة الرسم، فكان يرسم الأشكال كما يراها، فرسم الكثير من صور أبيه، وأمه، وذاعت شهرته بين المتخصصين كفنان قادم، وقد اهتمت أمه بتعليمه اللغة العربية، وكانت تتعلمها معه، ومع "هند".

ومنذ أن بلغ "إبراهيم" الثامنة من عمره تطورت مداركه، فسبق سنه بعدة أعوام، أخذ يُلح على أمه لزيارة مصر، فقد كان المدرسون يشرحون له عظمة الحضارة المصرية القديمة، حتى راح يقلب بنفسه بين صفحات الكتب عن مجد أجداده، وكانت أمه تساعده علي ذلك بشرح معالم الآثار، ومجد مصر القديم، فكان يتلقى المعلومات ليغرسها بوجدانه، كان يشعر بشديد الفخر بتاريخ وطنه الذي لم يره، فيقص ما يعرفه في المساء على أقرانه من التلاميذ في الصباح، فيرى في عيونهم بعضًا من الحسد على هذا الإرث التَليد.

كانت أمه قد أخبرته برحيل أبيه عنها إلى مصر، وعندما يسألها عن عنوانه تخبره بأنها لا تعرفه، ولم يتركه معها عندما رحل، بيد أن "إبراهيم" ظل يلح عليها بضرورة معرفة العنوان من القنصلية الإيطالية بمصر، كانت تتألم من شدة شوق صغيرها نحو أبيه، فهي تعرف العنوان من صورة أوراقه، ومازال جواز سفره بحوزتها، ولكنها لا تريد أن تكدر علاقة "غريب" بحبيبته "رجاء"، فهي تعلم مدى غيرة النسوة بالشرق على الرجال، كانت مقسومة بين فكرة

الوفاء بالعهد، وبين مشاعر الحرمان التي تضرب صغيرها، ولا تدري ماذا تفعل.

كانت تقص على ولدها شهامة أبيه ليقتدي بها، وتحكي له ذكرى الأيام الجميلة التي عاشتها معه، ولتمجيده كانت تحكي له قصة السفينة التي غرقت على مقربة من السواحل الإيطالية، وكيف قام "غريب" بإنقاذ "هند"، فولّدت تلك الحكاوي في قلب الصغيرىن عشقًا لشهامة الرجال بالشرق، وفخرًا في قلب "إبراهيم" بسيرة أبيه الذي لم يره، كانت الأم ترى في عين ولدها لهفة نحو بلده، فأشفقت عليه عندما وجدت وهج الشوق في صدره يزداد يوماً بعد يوم، ولن يطفئه سوى زيارة مصر، فوعدته بزيارتها في رأس السنة الميلادية الجديدة.

تمنت "ماري" في قرارة نفسها أن تقابل "غريب" مرة أخرى، ولو لبضع دقائق، فقد عشقت فيه نبل المشاعر، وقوة التحدي، وعفة النفس، فلم يستغلها، أو يغترف من مالها الكثير أو القليل، مع أنها كانت على استعداد أن تهبه ما يشاء من مال ليبقى معها، ولكنه كان من نوع خاص، واليوم تعيش على القليل من الذكريات، وتسبح في الخيال، تتذكر همساته، ولمساته، ونبضاته، فعندما تعشق المرأة تكتنز التفاصيل الرقيقة مخبوءة في أعماقها كأنها الدر، ولذا كان هذا الشوق دافعًا آخر نحو السفر.

في هذه الأثناء كان غريب يسعى للاقتراض لبناء مصنع حديث لصناعة الجبن بضمان المزرعة، وقد قدم المستندات والدراسات حول جدوى المشروع من الناحية الاقتصادية، وطلب من البنك مليون جنيه، وتحدد موعد للجان الفنية التابعة للبنك لعمل المعاينة، وهو أسبوع من الآن.

طار الخبر يملأ أرجاء القرية، فهرول العاطلون يحررون طلبات للعمل بالمصنع، الذي سيستوعب خمسين عاملًا، فساد جو من التفاؤل، وارتفعت أسهم الفتى، واشتد الغيظ في قلب فاتن" فالأنثى الشريرة عندما تغضب يأكل الحقد قلبها الأسود، فلا تفكر سوى في الانتقام، ورغم أن المقصود بالغدر لم يخطيء في حقها، فسوف تطاله نيران طائشة بلا ذنب، فجريمته النكراء في نظر الفاجرة كانت الوفاء للحب الطاهر.

راحت "فاتن" تعد العدة، وتنسج المؤامرة للنيل من "غريب" كي تروضه بالقهر، فهي التي بعثت لصًا منذ أسبوع لسرقة مكتبه بالمزرعة ظنًا منها بأن به ثروة طائلة، وعندما وجدت أن المبلغ هزيلا؛ قررت توجيه ضربة قاسمة للفتى، حتى تذله بها، لتروضه فيما بعد، فقررت الاستعانة برأس الشر الذي يتسول على عتبة بابها شيئًا من الرضا، فاستدعت "سرحان الأعسر" بالهاتف على عجل، فجاء على الفور كما الرهوان يلبي أوامرها، وعندما حضر نظرت إليه بغيظ وهي جالسة على مقعدها تضع رجلًا فوق أخرى، فارتبك هذا الوحش الكاسر من نظراتها الغاضبة، وقبل أن يجلس سألها :

- سرحان: ما الخبر؟

- فاتن: هناك شخص أريد تأديبه.

- سرحان: سوف أمحوه من على وجه الأرض.

- فاتن:(بحدة) لم أطلب منك القتل أريد فقط قرصة أُذن.

- سرحان: من هو ذلك الوغد؟، وماذا تطلبين مني بالتحديد؟.

- فاتن:إنه "غريب" صاحب المزرعة التي بجوار منزلي، أريد منك أن تدس السم لكل المواشي بالمزرعة، أريده أن يفلس، وينهار مشروعه.

وبعدها أشارت إليه بالجلوس، فجلس متعجبًا من هذا الطلب، لم يكن يرى سببًا معقولاً لذلك، ولكنه وافق، فرغم سطوته لم تكن لديه القدرة على مناقشتها أو رد طلبها، فقط أقنعها أن الأمر يحتاج إلى حسن التدبير، حتى يتم إنجازه بسلام، وطلب منها أن تمهله أسبوعًا قبل التنفيذ، وعلى فوره بدأ يخطط للجريمة بأن رصد عدد العمال بالمزرعة، والحراسة، وأنسب الأوقات للتنفيذ، ونوع السم الزعاف الذي سيستخدمه.

١٦- الجريمة

بعد أسبوع وفي منتصف مساء ليلة ظلماء، تقدم "سرحان الأعسر" بنفسه على عكس عادته في المزرعة، كان يرتدي جلبابًا وباروكة لتغير معالم وجهه، كي يمهد الطريق لعصابة من المجرمين للدخول، اقترب من البوابة، وألقى السلام على الحارس "عـادل"، وتحدث معه بود مصطنع كالثعالب، وعرّفه بنفسه على أنه مندوب شركة "الحمد" لتصنيع الجبن، ثم سأله عن كيفية شراء الألبان من المزرعة، فأخبره بأن يأتي في الصباح ليسأل صاحب المزرعة نفسه؛ لأنه هو المسئول عن البيع، فشكره، وأخرج لفافة طعام بها كباب ساخن تفوح منه رائحة شهية، وناولها للحارس، فأخذها ولعابه يسيل من الرائحة التي عششت في أنفه منذ أن قابله، وتوارى عنه "سرحان الأعسر" قليلاً حتى انقض على الطعام كوحش كاسر فأفناه في دقائق، وبعدها بدقائق أخرى فقد الحارس الوعي تمامًا، وتمدد على الأرض لا يشعر بأي شيئ؛ لأن الطعام كان محشوا بمادة مخدرة.

بعدها دخل خمس رجال ملثمون يحملون شنط بلاستكية سوداء، وقوية، وبها سم شديد المفعول، كانوا يرتدون على وجوههم أقنعة لا يظهر منها سوى العيون، وأخذوا يضعون أمام كل جاموسة في "المعلف" فوق الطعام ملء قبضة اليد من السم، وفي خلال دقائق معدودة كانوا قد انتهو من مهمتهم، وانصرفوا يركبون سيارة تنتظرهم بالخارج.

كان الجاموس بمجرد أن يلتهم بفمه بعضًا من الطعام؛ يسري السم في جسده بسرعة البرق، فيهيج يقفز من شدة الألم، كي يتفلت من الحبال السميكة المربوطة في أذنه فتقطع الأذن من قوة الشد، فيتضاعف الوجع، وبعضه

يسقط على الأرض فتكسر الأرجل، فُتسمع شهقات الموت حادة، وممزوجة بألم الاحتضار، كان الفناء مقترنًا بالعذاب.

أما"فاتن" فظلت بشرفتها تراقب ما يدور بالمزرعة، وتسمع خوار الجاموس الحاد جرّاء الألم، كان الصوت حادًا عالياً يشق السكون، بيد أنها كانت تبتسم في برود شديد، في حين أن السم يهوي كالسيوف يمزق بطون الحيوانات البريئة، ولم تدخل إلى غرفتها إلّا بعد أن أطبق الصمت المميت على المزرعة، تمددت تضحك كما الشيطان لا ضمير لها، حتى غاصت في نوم عميق، يتصاعد منه الشخير كأنه صفير من مزامير الموت.

ومع خيوط الفجر الأولي جاء العمال لمباشرة مهام أعمالهم في حلب مواشي المزرعة بالحلابات الآلية فوجدوا كل البهائم قد نفقت، والحارس يتمدد على الأرض فاقداً للوعي، وبجواره بعضًا من بقايا لفة الكباب، فقيدهم الحزن عن الحركة، فلم يعرفوا كيفية التصرف في مثل هذا الموقف.

استيقظ "غريب" في الصباح مبكرًا، وكان يشعر بانقباضة في قلبه، وقلقًا، وخوفًا لا يعلم مصدره، كأنه كان يقرأ الواقع، جر قدميه، ونهض نحو الحمام يغسل وجهه، وعاد يرتدي ملابسه حتى خرج؛ ليستقبل اللجنة الفنية التي ستقوم بإجراء معاينة فنية على المواشي لإعطائه القرض المطلوب في موعده، وعند اقترابه من المزرعة شاهد العمال يجلسون القرفصاء، ويضعون جماجمهم بين أيديهم، وكأن على رؤوسهم الطير، كان الحزن يملأ وجوههم، والصمت يطبق عليهم كما يُطبق الموت على الأحياء فيحولهم إلى صرعى بلا حراك، أدرك أن هناك أمرًا جللًا، وكما حدثته نفسه منذ بواكير الصباح، ولكن ما هو ذلك الأمر الذي يدفع هؤلاء لترك العمل والجلوس صفًا واحد أمام بوابة المزرعة كأنهم ينعون الحياة ؟.

أبطأ الخطى، وتثاقلت قدميه، حتى بات يجر نعليه بصعوبة أشد، وشعر بسرعة شديدة في ضربات قلبه، ونظر نحوهم متوجسًا، ألقى السلام على الجلوس مرتعدًا من صمتهم القاتل، فلم يرد أحد عليه خوفًا من أن يصدمه

الرد، كانت ألسنتهم معقودة بالصمت فلا يتكلمون، صرخ فيهم :

- ماذا حدث؟

وهرول نحو المزرعة يجري فإذا بكل المواشي ممدودة على الأرض، أفواههم عليها ريم، ورغاوي بيضاء، وقد ماتوا عن بكرة أبيهم، كان يبدو من منظر الجثث أن الحيوانات قد عانت أوجاع الاحتضار بحدة، كان المنظر رهيبًا، ومحزنًا، رأى "غريب" الطبيب البيطري بصحبة "سيف جاد" ، هرول نحوهما ليفهم ما حدث، بيد أنه من الواضح أنهما لم يستطيعا فعل شيئ، نظر إليهما صارخًا:

- غريب: ماذا حدث ؟!

- الطبيب: المواشي قد سُمت

- غريب: لماذا؟ أنا لم أفعل الشر قط، أنا أحمل الخير لكل الناس، لقد اخترت هذا المشروع بالذات حتى يستفيد أهلي وناسي هنا، وبني وطني في كل أنحاء القرية، كان من الممكن أن أذهب للمدينة واستثمر أموالي في العقارات فأربح الملايين في غمضة عين، قولي يا "سيف" هل أصبح الخير في هذا الزمن جريمة ؟ هل الصدق في هذه الأيام أصبح ذنبًا ؟ (يتقدم سيف نحوه يهدهد رأسه برفق، وهو يبكي)

- سيف : اهدأ يا غريب المهم إنك سليم، وسوف تعوض المال الذي ضاع منك

- غريب:(منهارًا باكيًا) أنا لا يعنيني المال، يا "سيف"، كل ما يؤلمني هو الغدر دون ذنب، من فعل بهذه الأرواح البريئة تلك الفعلة الشنيعة، من الذي قتلها بهذه الطريقة الشرسة، كم تألمت هذه الحيوانات الخرساء من أوجاع السم؟! يا حزني عليكي أيتها البهائم، في هذه الدنيا المتقلبة، لم يسلم الأبرياء من البشر، حتى الحيوانات لم تسلم من شر الخائنين.

سقط مغشيًا عليه من شدة الصدمة، فهرولوا نحوه، وحاولوا إفاقته،

فوجدوه يهذي بكلام غير مفهوم، وتنتابه حالات تشنج خطيرة، خشوا عليه من الصدمة ونقلوه بسرعة إلى مستشفى القرية كي تسعفه.

نام "غريب" على السرير بغرفة الاستقبال فاقدًا للوعي، كان عقله يتذكر كيف كانت تعامل الحيوانات في "هولندا" مرت على ذهنه واقعة سقوط كلب صاحب المزرعة التي كان يعمل بها في بئر عميقة يقترب عمقها من عشرة أمتار، وكاد الكلب أن يموت من الجوع والبرد، وخاصة أن الثلوج كانت تغطي القاع بكثافة، فما كان منه إلّا أن سعى لإنقاذه من الموت، بأن أحضر حبلًا طويل ربطه في عمود حديدي بجوار البئر، وهبط عليه، وأمسك حبلًا آخر مربوطًا بجوال من الخيش لحمل الكلب فيه حتى لا تؤذيه حافة الحبل عند جذبه إلى أعلى، وبعد أن وضع "غريب" وقتها الكلب بالجوال تسلق فوق الحبل المخصص للصعود، وبعدها جذب الكلب حتى أخرجه.

تحول الحدث إلى مادة ثرية بكافة وسائل الإعلام، وكرمته بعض الجمعيات التي أُنشئت هناك خصيصًا للرفق بالحيوان، وقابله عمدة المدينة، ومنحه شهادة تقدير لنبله وشجاعته؛ لأنه أنقذ روحًا من الموت، ورغم أنه يرقد في غيبوبة، كان عقله الباطن يتذكر الفرق بين البشر هنا وهناك، كان يتألم حزناً على أرواح أُزهقت بلا جريرة.

حضرت أمه "حميدة" تصحبها "رجاء" يبكيان على حاله، ومن هول الفعلة الشنيعة، ظلا بجواره سويعات حتى فاق من غيبوبته، وعاد معهم وخلفه أهل القرية يواسونه، ويلعنون المجرم المجهول الذي فجعهم بفعلته الخسيسة، وقد جاءت الشرطة، واستجوبت الحارس بعد أن تم إسعافه، ولم تصل التحقيقات إلى تحديد هوية المجرم الذي ارتكب هذا الحادث، فحرر المحضر كما هي العادة ضد مجهول، ولم يتم اكتشاف الجاني.

كان "سيف جاد" يبكي متأثرًا، ويقسم بالثأر من الفاعل، متوعدًا إياه بالانتقام؛ ولذا اختفي عن القرية عدة أيام يبحث عن الحقيقة، لعله يعود بالخبر اليقين، وموثقًا بالدليل.

١٧- الحصاد المر

في مساء اليوم التالي للحادثة حضر "سرحان الأعسر" إلى "فاتن" في منزلها، كي يحصد من مفاتن جسدها ثمن نذالته، وعندما هبطت إليه من الدور العلوي كي تقابله، كانت كاشفة ذراعيها، وترتدي فستانًا شفافًا، تظهر من أسفله ملابسها الداخلية بوضوح تام، نهض يستقبلها والرغبة تشتعل في جوارحه، وبعد أن فقد السيطرة على نفسه، ضاعت منه الكلمات المرتبة، في البداية فاتحها في موضوع الزواج، ولكنها أخبرته أن عدة زوجها لم تنته بعد، وحتى ترضيه استقبلته في غرفة نومها، تكافئه على فعلته الشنيعة، فصعد الباغي بصحبتها فوق سرير الرجل الذي حرقه بالأمس كي يحل محله، وسلمته الفاجرة نفسها الخبيثة، وجسدها الملوث بالخطايا، فبات يعبث بهما كيفما يشاء، ومرت ساعات وهما يرتشفان من الرغبة المحرمة، كما يرتشف المعتوه الخمور المعتقة في الدماء، كلاهما تبلدت لديه الأحاسيس تمامًا، وكانا كخنزيرين يلتحف كلاهما بالآخر.

انهمكا يغوصان في نهر الوحل والخطيئة، لا يأبهان بمرارة الخيانة؛ لأنهما لم يتذوقا غيرها من قبل، وفي نشوة الوهم؛ طلبت منه العاهرة بأن يعد خطة جديدة لحرق منحل العسل المملوك لـ"غريب"، ولا ينفذها إلّا بإشارة منها، وعدها بالسمع والطاعة، وهبط من عندها قرب الفجر، يجر أذيال الخسة بين قدميه، حتى إن الملابس فوق جسده كادت أن تلفظه، والأرض من تحت قدميه تمنت أن تبتلعه، كي تخلص البشر من شروره.

شاهده "الخفراء" وهو يخرج من منزلها متلصصًا كفأر مذعور، فطارت أخبار فجُورها في الصباح فوق ألسنة الناس الذين تأففوا من رائحتها العفنة،

وقلة حيائها. كانت خطة الماجنة أن ينصاع لها الفتى "غريب"عنوة، أو أن تدمره، فلا يجد بديلاً إلّا بطاعتها، كانت مستعدة لسحق كل قيمة مقابل نيل نزوته منها.

خرج معظم أهل القرية يطهرون المزرعة من الجثث، ونقلوا المواشي النافقة إلى المحرقة، حتى لا تتعفن، وتلوث البلدة بالميكروبات أو بما ينبعث منها من روائح كريهة، لقد وحدت هذه الأزمة الجميع، وأصبح الكل يسعى نحو معرفة من هو الجاني الحقيقي، كي يتم إنزال أشد العقاب عليه. وتولى "سيف جاد" مهمة جمع المعلومات للوصول إلى الحقيقة.

وبعد أيام من تطهير المزرعة ذهب "غريب" إليها حزينًا لعله يستطيع إعادتها للعمل من جديد، ولكنه قرر بذل كل ما بوسعه لمعرفة الجاني قبل التفكير في تدبير الأموال اللازمة لشراء مواشي جديدة؛ لأن المجرم ربما يكرر فعلته مرة أخرى، فيتبدد الجهد والمال، كان يشك في الفاجرة "فاتن" شكًا كبيرًا، وخاصة بعدما لفظها عندما جاءته تطلب منه قضاء سهرة ساخنة، بيد أنه فضل الصمت إلى حين الإمساك بالدليل.

وبعد منتصف النهار ذهبت إليه "رجاء" في المزرعة كي تواسيه، كانت بجواره كالوردة "الدمشقية"، أو كما يطلقون عليها الوردة "الجورية"، مظهرها يوحي بالأمل، والثقة بالنفس والسكينة، وعمق التأمل، فبدت بجواره كأنها أيقونة من الأمل ترمز إلى مفاهيم الحب، والعواطف الصادقة، عندما تتحدث تتدفق مشاعر النبل من ثغرها، كأنها قنينة من العطور النفيسة، رائحتها تفوح بالنعومة والعذوبة، وجودها خفف عنه هول الصدمة، فراحت تداعبه:

- رجاء: إياك أن تنسى موعد الزفاف بسبب ماحدث.

- غريب:(مبتسماً بوهن) لم أنسه، ولكني محبط.

- رجاء: لا تستسلم لليأس، سوف ننجح معا في قهر جحافل الشر.

- غريب: منذ فجر التاريخ يا حبيبتي، والشر يقهر الأبرياء ظلمًا وعدوانًا، لا يردعه النصح، أو حسن الخلق، ولا يعترف بقيم التسامح؛ ولذا تلح عليّ

فكرة مجنونة، ولأول مرة أفكر في الانتقام، ومواجهة الشر بالشر، هذا العالم الغريب رغم ادعائه التحضر، يقف على حافة الظلم، تحركه أيادي الغدر في أحيان كثيرة.

- رجاء: صدقت، ولكن عليك بالتريث، سوف نقهر الأوغاد بالعقل والحكمة، حبيبي لا تجعل الغضب يجذبك نحو التهور، فخيوط الجريمة واضحة، وفيما يبدو أن العاهرة أوعزت لـ"سرحان الأعسر" بتدمير المزرعة، ردًا على تجاهلك لنزوتها، وقد شاهده أهل القرية بالأمس يدخل بيتها منذ الغروب، ولم يخرج إلّا قُبيل الفجر.

- غريب: أنا على ثقة أنه قبض ثمن فعلته الخسيسة بالأمس، ولكن ما ينقصنا هو البرهان الدامغ.

- رجاء: سوف نعثر عليه، لا توجد جريمة كاملة، سيسقطون بغيهم كما يسقط الذباب تحت الأحذية؛ لأن الغرور قد تملكهم، والمغرور يُذبح دائما بالكبر، وعما قريب سيحدث ذلك.

أراح كلام "رجاء" قلب الفتى، واستعاد جزءًا من ثقته بنفسه، وراح يداعبها بمعسول الكلام، ففرحت بتلك المداعبة؛ لأنها أخرجته من الحالة السيئة التي انتابته منذ أسبوع، كانت تُخضعه بلين القول، وتتعمد مغازلته برقة ونعومة، وتطير فرحًا مع مخاض كل بسمة تعلو فوق جبينه، تعمدت أن تزرع الأمل من جديد في صدره، ولم تتركه حتى ردت روحه الطيبة إليه، وبعد أن اطمأنت عليه تركته، وعادت إلى منزلها، فجلس يفكر بعقله في فك هذه المعضلة، وكشف هوية الجاني.

كانت "فاتن" تتلصص عليهما بعيونها من ثقب بشباك الشرفة المجاورة التى تطل علي المزرعة، وعندما لمحتها معه، جُن جنونها، واشتعلت فيها نيران

الغيرة الحمقاء، فوضعت أصابعها في فمها تقرض أظافرها من شدة التوتر، كانت الهمسات بين الحبيبين تشعل في أحشائها النار، كانت تود أن تسمع ما يقولان، لكن دون جدوى لبعد المسافة، ولكنها فهمت من هيئتهما أنهما جد سعيدين، ومنسجمين، فقدت توازنها وعقلها، وقررت أن تهبط إليه مرة أخرى لعلها تغريه بنفسها ومالها، أو تنذره بضياع كل ثروته فيستجيب لها.

بعد أن كست خيوط الظلام المكان، هبطت ودخلت المزرعة حتى وصلت مكتبه، وألقت عليه السلام، فلم يرد، فغضبت أكثر:

- فاتن: لماذا تتجاهلني هكذا؟

- غريب:(دون أن يلتفت نحوها) ماذا تريدين مني؟

- فاتن: أريدك أنت، مازلت راغبة فيك (بتوسل) المزرعة خالية، ولا يوجد هنا سوانا، تعالى بجواري، وضع رأسك فوق صدري، هيا اقترب أخلع ملابسك، واعبث بجسدي كيفما تشاء، أنا مشتاقة لحضنك، حتى لو كان هذا الحضن هو الحضن الأخير في حياتي، أرجوك اقترب وضمني نحوك، وقبلني بشدة.

- غريب: أنا لا أستطيع خيانة حبيبتي رجاء مهما حدث.

- فاتن :(بإغراء) سوف أشتري لك مواشي بدلاً من التي ماتت.

-غريب: ترسلي من يقتلها بالأمس، وتشتريها لي اليوم؟ لماذا؟

-فاتن : كانت قرصة أذن، وإن لم تستجب سوف أحرق المنحل.

-غريب: هذا جنون!

- فاتن: أنا أحبك .

- غريب:(بدهشة) أنتِ كاذبة، كيف تحبيني وكنت بالأمس في حضن رجل آخر.

فاتن: تقصد "سرحان الأعسر"

غريب: نعم أقصد ذلك الوغد الذي سمم المواشي.

فاتن: لن أقابله مرة أخرى، ولن أجعله يؤذيك ثانية، فقط تعالى، اقترب مني لنقضي هذه الوقت نقترف من لذة الغرام ما نشاء، وحتى الصباح.

اقترب "غريب" منها ببطئ يومئ رأسه، وعندما وصل إليها، استجمع كل غيظه وهوى على وجهها بصفعة تلو أخرى فصرخت، وسقطت على الأرض من شدة الصفعات، جذبها من شعرها يجرها على الأرض نحو بوابة المزرعة ودفعها نحو الخارج، فنهضت تبكي تتوعده بشر مستطير.

عادت إلى منزلها ترتجف ومذعورة، وبعد أن فقدت القدرة على التفكير، راحت تتخبط بينها وبين نفسها، بأن تفكر في الشيئ ونقيضه في ذات اللحظة، فلم يضربها أحد من قبل، ولم تشعر بحقيقتها الوضيعة، وضآلة قدرها سوى اليوم، ضربتها الحيرة، واجتاحتها رغبة جامحة في الانتقام، لقد توهمت أن غريمتها في هذه المرة هي "رجاء"؛ لأنها من تحول بينها وبين "غريب"، ولذا باتت تفكر في الخلاص منها، فأخذت تفكر في قتلها، كي تشفي مرارة الغيرة التي تملأ صدرها، ولكن هل ستنجح في ارتكاب ذلك الجرم الخطير؟.

١٨- اللعب على المكشوف

كان "سيف جاد" يسعى لكشف الحقيقة بكل عزمه، فتحول منذ الحادثة إلى مخبر سري، وعرف الكثير، وعندما علم أن "فاتن" من منطقة العجمي بمدينة الإسكندرية، ذهب إلى هناك يجمع المعلومات عنها، وعن عشيقها الجديد، وزوجها المحروق، وبعد التحري علم أن ثلاثتهم من تجار المخدرات، وسمعتهم بالغة السوء، ولذا مكث عدة أيام يجمع أخبارهم القديمة بكل تفاصيلها، فالقديم عادة ما يكون محركًا للجديد، ومفسرًا لبعض السلوكيات الغامضة.

أصبح حصيفًا في التحري عندما راح يفتش عن الأخبار بين النسوة الساقطات، فهن مقصد لتجار الصنف، ساقته قدماه نحو بارٍ يقدم الكحوليات، وجلس مع إحدى بائعات الهوى، وراح يصف لها المرأة التي جرته نحو الإدمان، فأخبرته أن تلك الأوصاف لـ"سهام فتحي" بمنطقة العجمي، وأن هذه السيدة كانت تعمل منذ فترة في البارات، ولكنها تحولت إلى سيدة أعمال، وصاحبة معرض الأناقة للملابس الجاهزة بجنوب العجمي.

في عصر اليوم التالى ذهب إلى المعرض، وسأل عنها مدير المعرض فأخبره بأنها خرجت كعادتها تقضي بعض الوقت على مقهى الأمل السياحي، المملوك لزوج أختها على بعد مئات الأمتار، ذهب إلى المقهى يتفحص الحضور، فوجد المرأة التي جرته نحو إدمان المخدرات، إنها "دلال الطويل" التي أغوته، واسمها الحقيقي "سهام فتحي"، فقفز نحوها، وأمسك يدها وجذبها من يدها إلى الخارج، فنهضت معه خوفًا من الفضيحة.

كان المقهى ملك زوج أختها، وخشيت أن يتطور الشجار، فيعرف أهلها أنها من بنات الليل، وخاصة أن خروجها المتكرر، وتغيبها خارج المنزل كان غير مبرر، وكانت توهمهم بأنها تسافر لشراء البضاعة، فإذا طالت فترة الغياب، تخبر أهلها أنها سافرت خارج مصر، وإذا تأخرت لعدة ليال، تخبرهم أنها كانت تتسوق من المدن المصرية الصناعية البعيدة، كانت بشخصيتن، أمام أسرتها سيدة محافظة، وفي الحانات بائعة للهوى.

منذ عقد من الزمن عملت ساقية للخمور، والمشروبات الكحولية في أحد الملاهي السياحية، دون علم أهلها، كانت تخبر أمها الأرملة أنها تعمل ممرضة، حتى تبرر خروجها بالليل، وفي البداية كانت تأخذ نسبة على ما يتم بيعه للزبائن من كحوليات، فراحت تجذب الأثرياء نحوها بجمالها، ومع الوقت تحررت من بقايا عفتها، وأصبحت تقدم نفسها مع المشروبات آخر الليل لمن يدفع جيدًا، وتكمل ما بقي من المساء في شقة هذا، أو فيلا ذاك.

تمرست مع الوقت في انتقاء الزبائن بعناية فائقة، وقد برعت في إفراغ جيوب الرجال من النقود، ولشدة جمالها ذاعت شهرتها بين عشاق الليالي الماجنة، ومع الوقت كونت ثروة معقولة، واشترت محلا كبيرًا من أحد المقاولين في مركز تجاري حديث، وسددت ثمنه بثديها، بأن دفعت بعضًا من ليالي عمرها للمراهق العجوز صاحب العقار، وبعدها فتحت معرض الأناقة لبيع الملابس الجاهزة كستارٍ لما تقوم به.

كانت تعرف أن تجار المخدرات هم أكثر من يدفعون المال للبغايا، فكانت بقوة حدسها تشم رائحتهم، وتعرفت على "دياب النمر" في إحدى ليالى الخريف منذ عدة أعوام بأن قضت معه عدة ليال، وبعدها تكررت اللقاءات حسب الهوى، وكان يتفاءل بها، ويثق في قدرتها على الفتك بالرجال؛ ولذا كان يرسلها أحيانا كهدايا لأصدقائه من أصحاب النفوذ في مجاله، وسبق أن أرسلها "لفهد السكران" عم زوجته عدة مرات، وكان يدفع لها بسخاء، مما يجعلها تنفذ ما يريد دون تفكير.

تحركت "سهام فتحي" مع "سيف جاد" وهي ترتجف، خوفًا من فضح شخصية "دلال الطويل" المرأة اللعوب والمزيفة، كانت تمشي بجواره مرعوبة، وانحنت تقبل يده على قارعة الطريق، تطلب منه السماح، مقابل البوح بكل ما تعرف، فقد ظنت أنه يقصدها للانتقام منها.

ذهبا معًا إلى أول كافتريا جانبية مرا عليها، وجلست تقص عليه ما تعرف، فأخبرته بكل ما حدث منذ أن جرته نحو إدمان الهيروين حتى اليوم، وما علمته عن تجار الكيف وخلافاتهم القديمة، امتلأ صدره بالغضب منها، ومن "دياب النمر"، الذي حرضها لجره نحو طريق الضياع، وظل يسألها وهي تجيب، مذعورة كالفأر، توسلت إليه كي يسامحها، ولا يفضح أمرها عند أهلها، وبكت أمامه نادمة على ما حدث، وأقسمت له أنها منذ أن عادت من شرم الشيخ وهي تلعن نفسها على ما حدث منها، نظر إليها ونهض واقفًا:

سيف جاد: تعلمت من "غريب" أن العفو عند المقدرة من شيم الكرام؛ ولذا لن أفضحك، لعلك تعودين يوما ما إلى رشدك وتطهري نفسك كما طهرت أنا نفسي، لقد جئت إلى هنا لهدف محدد، وقد أنجزته.

تركها ، وعاد إلى القرية في المساء، ومعه مفاتيح الماضي. لم ينتظر قدوم الصباح، وهرول نحو المزرعة يفحص الصور التي التقطتها الكاميرات يوم الحادث من على بوابة المزرعة، فإذا بصورة الرجل الذي خدّر الحارس بالطعام قريبة الشبه من صورة "سرحان الأعسر"، بل هي، فقد تأكد من ذلك عندما دقق في العلامة السوداء التي فوق أنفه بين الحاجبين، بعدها بدأ يفحص باقي الصور فوجد تسجيلا لـ"فاتن" وهي تهدد "غريب" ففرح بذلك أشد ما يكون الفرح، فهذه الصور سوف تقود إلى فتح التحقيق من جديد.

ومع بداية الشروق جمع الأدلة المصورة على أسطوانة ووضعها في مكان أمين، بعد أن سجل نسخة منها على الهاتف، وذهب بها إلى "فاتن" يساومها على تصحيح جريمتها، بدفع ثمن المواشي التي قتلتها، ولكنها في البداية صرخت في وجهه، واتهمته بالجنون وهمت بطرده.

ولكنه أخرج لها النسخة المسجلة على هاتفه، وطلب منها التريث حتى تشاهدها، أخذت الهاتف لترى وتسمع، فبهتت مما رأت، فجذب الهاتف منها، وعاد يكرر وعيده وتهديده لها، حاولت شراء سكوته:

- فاتن: سوف أمنحك بعضًا من المال مقابل مسح هذه الصور للأبد.

- سيف: وأقضي ليلة معك.!

- فاتن: ولك ليلة .

- سيف: أخرسي يا فاجرة.

انفجر سيف يضحك بسخرية وغيظ يزجرها، ويسبها بأبشع الألفاظ، فقد كان غيظه منها ومن زوجها كالنار التي تشوي الصدور، وطلب منها أن تحرر شيكًا بثمن المواشي، وأن تبتعد عن غريب نهائيا، وإلّا سوف ينشر هذه الصور على "الفيس بوك"، ويرسلها للنيابة العامة، ونظراً لخوفها من الفضيحة، والمحاسبة القانونية حررت له شيكًا بثمن المواشي النافقة مذعورة، فخرج من عندها مسرعًا وصرف الشيك، وذهب بالمال إلى تاجر المواشي، وأعطاه المال على أن يدبر مائة رأس خلال أسبوع، وفي اليوم التالي أرسل التاجر عشرين رأسا إلى المزرعة، وسط ذهول الجميع، حتى تم اكتمال العدد في خلال خمسة أيام.

كانت المفاجاة سارة بالنسبة لـ"غريب" وخاصة بعدما علم أن "سيف جاد" قد سلم الصور المسجلة إلى النيابة العامة مع ما جمعه من أخبار حول تجارتهما في المخدرات، فُوضعت المجرمة وعشيقها تحت المراقبة.

وفي نهاية الأسبوع طلب وكيل النيابة من "سيف جاد" نشر اللقاء المسجل لـ"فاتن" وهي تغوي "غريب" بسهرة حمراء حتى تحدث الوقيعة بين المجرمين، وتربكهما، وتخرجهما عن التوازن، فيسهل اصطيادهما، وفعل "سيف جاد" ما طلبته النيابة، ونشر كل الحكاوي القديمة، موضحاً من هو صاحب المصلحة في حرق العمدة حيًا.

انتشر اللقاء المسجل على صفحات "الفيس بوك"، وضجت القرية من جرأة الفاجرة، وتحركت عائلة "دياب النمر" لتثأر لشرفها المذبوح، جراء ما تناقله

الناس بالأمس القريب حول قضائها ليلة في غرفتها مع رجل متهم بقتل زوجها، علاوة على ما شاهدوه من لقاء مصور، وهي تراود الفتى "غريب" عن نفسها، تدحرجت الأخبار فوصلت إلى الجميع، واتهموها بالمشاركة في حرق العمدة حيًا، أو التستر على الجاني، ساد الهرج والمرج أنحاء القرية، وتجمع الناس بالمشاعل والعصي، والفؤوس للانتقام من الفاجرة.

ضرب الذعر قلب "فاتن" عندما شاهدت أمواجًا من البشر تتجمع حول منزلها، فطلبت رفيقها الشيطان "سرحان الأعسر" في الهاتف للمساعدة؛ لأن القرية قد ثارت عليها، وربما يحرقون المنزل، ومن حسن حظها أنها كان في الطريق إليها، وقريب من القرية، وكان غاضبًا منها، بسبب ما شاهده على صفحات الفيس بوك، فرد عليها يسب خيانتها له، وميلها نحو رجل آخر، فردت عليه:

- فاتن: لا تلمني يا سرحان، ليس هذا وقت اللوم.

- سرحان: تخدعيني حتى أسمم المواشي، بسبب رغبتك في غريب، لقد أصبحت كالحمار تقفزين من فوقه إلي رجل آخر.

- فاتن: عليك أن تنسى هذا وتأتي لإنقاذي فورا.

- سرحان: كيف أنسى الخداع ؟

- فاتن: كما نسيت أنا، ألم تحرق زوجي في السابق؟

- سرحان: كان ذلك من أجلك.

- فاتن: أرجوك تعالى اليوم أيضًا من أجلي، وسوف أكون لك فقط.

- سرحان: أخرجي من الباب الخلفي نحو الطريق الخارجي، وسوف أصل بعد دقائق للفرار بك من القرية.

سجلت النيابة المكالمة الصوتية السابقة، وغيرها من مكالمات، وامتلكت الدليل على جرائم "سرحان الأعسر"، في قتل "دياب النمر" بالاعتراف، علاوة على جرائم الاتجار بالمخدرات، والاشتراك مع "فاتن" في جريمة إتلاف ممتلكات

الغير، وقتل المواشي بالمزرعة، وبعد أن لف الاثنان الحبل حول رقبتهما، كانت الشرطة تستعد لضبطهما، والقبض عليهما، وتقديمهما للمحاكمة.

خرجت "فاتن" من منزلها بسرعة، للهرب من الجموع التي جاءت للانتقام منها، وتركت ولديها من خلفها بالمنزل مع الخادمة، فلا خوف عليهما؛ لأنها كانت تعلم أنها المقصودة فقط، تسللت مذعورة ذليلة بفعلتها، وسقطت عنها الهيبة المزيفة التي طالما رُسمت على جبينها بالباطل، وبهت لونها، فأصبحت ملامحها كالحة، ووجها أصفر، وعيونها زائغة، كانت تجري حتي وصلت الطريق المؤدي إلى خارج القرية، ووقفت تراقب الطريق، وتتلصص النظر من خلف شجرة تنتظر قدوم رفيقها المجرم، وبعد دقائق وصل، فركبت معه، ولكن سيارة الشرطة كانت على مقربة منهما تلاحقهما، فارتد "سرحان الأعسر" في الطريق العكسي يسير بسرعة جنونية، للإفلات من الكمين، فإذا بصوت مكبر الصوت ينادي عليه:

- الصوت: توقف يا سرحان الطريق كله تحت السيطرة، ولا داعي للمقاومة، سلِّم نفسك، وإلّا سوف يتم التعامل معك بالذخيرة الحية.

نظر نحو "فاتن" يخاطبها:

- سرحان: يبدو أننا مراقبان، فقد نُصب لنا كمين شديد الإحكام، وسجلت كل اتصالاتنا في الهاتف.

-فاتن: لقد ضعنا ياسرحان.

- سرحان: لن نستسلم لهم، وسوف نتمكن من الهرب.

- فاتن: كيف نهرب والطريق كله عساكر، والأكمنة كثيرة، والشرطة تتبع خطواتنا.

- سرحان: سوف أسلك الطرق الجانبية، فأنا أعرف كل المسالك، وسوف نهرب خارج مصر، عندي أرصدة مالية بالخارج تكفينا طوال العمر.

وانطلق "سرحان" يقود السيارة بسرعة البرق، ويرواغ قوات الشرطة،

والتي أحجمت عن إطلاق الرصاص الحي، حتى لا تصيب الرصاصات المارة بأذى، ففلت المجرم هاربًا من الكمين.

وبعدها باتت قرية "كفر الهوى"في سعادة بالغة، لرحيل المجرمين، ولخلاصها من بؤرة الشر، أما ولدي "فاتن" انتقلت مهمة رعايتهما إلى عمهما "أبو المجد" وكان رجلاً فقيرًا، ذا همة وخلق، على عكس أخيه، "دياب النمر" الذي قطع علاقته به وبأهله بسبب فقرهم، وإرضاءً لزوجته الفاجرة، وبعد هروبها تدخل أهل القرية عنده، وألزموه برعاية الصغار حتى يكبروا، فوافق على ذلك.

كانت القلوب قد تحولت بالحب نحو "سيف جاد"، بسبب كشف خيوط الجريمة، ووفائه لصديقه، فارتفع قدره بين الناس، وتوطدت علاقته بالجميع، وأصبح رجلاً مرحبًا به في كل البيوت، أصبح شخصًا جديدًا، ينشر الخير في كل مكان يذهب إليه؛ وبعد أن طلق شرور "الفيس بوك" بات لا ينشر إلّا الحقائق، فتعلقت به قلوب الكثيرات من البنات، كفارس لأحلامهن، وخاصة "أحلام" ابنة خال "غريب"، وراحت تداعبه على صفحات الفيس بوك بكلام رقيق لعله يستجيب لها، وقد شعر بميلها إليه، وبدأ يفكر فيها لعلها تكون زوجته عندما يحين موعد الاستقرار، وقد أرجأ الفكرة مؤقتًا حتى يعود إلى عمله في البنك، وقد رفع دعوة قضائية بذلك، وطمأنه المحامي بأنه سوف يعود إلى عمله عما قريب.

١٩- الزفاف

وصلت "ماري" مصر بنهاية شهر ديسمبر، ومعها ولديها "إبراهيم" و"هند"، وقضواالأسبوع الأول في مدينة الأقصر يمرحون في عبقها التاريخي، والتى عرفت بمدينة المائة باب، أو مدينة الشمس، وسابقاً باسم طيبة، وكانت عاصمة مصر في العصر الفرعوني، ومبعث جمالها، كما أنها تحتوى على آثار كثيرة، وهذا يجعلها أكبر مدينة أثرية بالعالم، وقد منحها النيل جمالاً بأن قسّمها إلى شطرين، هما: البر الشرقي والبر الغربي، فتعانقت على ضفتيها الحضارة مع البهاء، فأصبحت المدينة لوحة طبيعية رائعة الحسن.

كان "إبراهيم" شغوفًا بالحضارة المصرية في مدينة "الأقصر"، التي كثيرًا ما قرأ عنها، فزار "مدينة الحياة"، التى بنيت على الضفة الغربية، حيث توجد التماثيل، والمقابر، ووديان الملوك، والملكات، والعديد من المعابد، وبهره "معبد الكرنك"، وروعة "البحيرة المقدسة"، وعبق "مقبرة مينا" موحد القطرين، وجمال "معبد الدير البحرى"، الذي بني بمعرفة الملكة "حتشبسوت".

وتجولت الأسرة بسعادة غامرة بين الآثار الخالدة، وتفقدت المتحف الرائع الذي بنى خصيصاً للملك "رمسيس الثانى"، ومعبد "مدينة هابو"، والذي بنى خصيصاً للملك "رمسيس الثالث"، وكانوا يرجعون إلى المرشد السياحي لمعرفة ما لا يعرفونه، وقد وقفت "هند" أمام تمثال كبير تسأل "إبراهيم":

هند: هذا التمثال ضخم جدًا، وطويل.

إبراهيم: لقد أخبرني المرشد السياحي منذ أمس أن اسمه تمثال "المرمر"، وقال أيضًا أن طوله نحو ١٩,٢ مترًا.

هند: من هو "المرمر" ؟

إبراهيم:هو البقية الباقية من معبد "أمنحتب الثالث" الذي عانى من التصدعات، فسماه الإغريق باسم "المرمر"، نسبة لأحد أبطالهم الذى مات فى حروب طرواده.

كانت مدام "ماري" سعيدة بزيارة مصر، وتتوق لرؤية "غريب"، فالحب النقي في قلبها كان كالنهر يفيض بالغرام العذب، ولكنها مرتبكة، وتخشى أن يتسبب هذا اللقاء في مشاكل للحبيبين، فربما تتعقد المسائل إذا عرفت حبيبته "رجاء" أن له ولدًا من غيرها، وأيضًا لم تعد تستطيع حرمان ابنها من لقاء أبيه، كانت تماطل الصغير تارة، وتسعى للقاء بحرارة تارة أخرى، كأنها معلقة من رأسها تتأرجح بين مشاعرها، وبين مثالية مطلقة من الصعب أن توجد في عالم البشر، تريد الوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسها، بألّا تتصل به مرة أخرى تحت أي ظرف، وترغب في رؤيته.

وبعد نهاية الأسبوع الأول من تواجدها بمصر، غادرت الأقصر، إلى القاهرة تزور أهرامات الجيزة، وكانت تعلم أن قرية "كفر الهوى"على بعد كيلو مترات قليلة من الفندق الذي نزلت فيه، وأخيرًا بعد طول تردد عقدت العزم على الذهاب إلى "غريب" في مساء الخميس الأول من يناير، دون أن تعلم أن هذا اليوم هو نفس الموعد المحدد لِزفافه.

بدأ يوم الخميس بهيجًا في كل أرجاء القرية، ومنذ بداية الصباح في يوم العرس، و"رجاء" تستعد لليلة العمر،وبعد أن هيأت نفسها، ذهبت تجهز أغراضها الخاصة، بأن فتحت شنطة ملابسها ترتبها، وتعطرها بالروائح الزكية، فامتزجت الألوان الرقيقة بسحر العطور الشرقية، يفوح منها أريج الورود، وأغلقتها جيدًا استعدادًا لليلة العمر.

وقبيل الغروب غمرت نفسها، في حمام ماء دافئ حتى تزيل آثار الهموم من فوق عمرها، إلا اللحظات الجميلة، والتي أنارت رحلة حبها الطاهر، وبعد سويعات كانت جاهزة في ثوب العرس كالملاك الذي ينتظر لحظة الطيران، كي تحلق في سماء الحب.

كان "غريب" هو الآخر قد أعد نفسه، وبيته لهذه الليلة الموعودة إعدادًا جيدًا، ففرش شقة الزوجية بأثاث رقيق، وزين الحوائط بألوان بهيجة، ومريحة للعين، وفرش الأرضيات بسجاد منقوش بطريقة بديعة، ورشت أمه العطور فوق كل قطعة من قطع الأثاث، فانتشرت رائحة العطر، وكأن المنزل حديقة من حدائق الربيع، ومع دقات الموسيقى العذبة انطلق موكب العرس نحو عش الزواج الميمون.

وبالتزامن مع قرب انتهاء الزفاف، وعندما هم العريس بحمل عروسه ليصعد بها نحو عش الغرام، وصلت مدام "ماري" و " إبراهيم" و"هند"، إلى بوابة منزل العريس، يسألون عن "غريب"، فأخذهم شاب من الحضور نحو أمه، استقبلتهم الأم "حميدة"، ورحبت بهم على أنهم من المعازيم، ووجدت نفسها تقترب من "إبراهيم" تنظر إليه، وكلها شوق جارف نحوه، وجدت قلبها مشدودًا إليه بقوة، انحنت تقبله بود، وحنان، احتضنته دون أن تدري أنه حفيدها، فقد كان الطفل يحمل ملاح زوجها "نادر"، وعندما وجدت "ماري" أن القلوب قد تعارفت بالفطرة، أخبرتها وهي تمسح على شعر "إبراهيم"، أنه حفيدها، وابن ولدها، فبهتت من المفاجأة، ووضعت يدها على فم "ماري" حتى لا يسمعها أحد، فربما يكدر هذا الخبر صفو هذه الليلة، فيحدث ما لا تحمد عقباه.

أخذتهم "حميدة" بسرعة نحو شقتها بالدور الأرضي، وأغلقت الباب، مخافة أن يصل الخبر إلى "رجاء" أو أهلها، وحتى لا تنغص إتمام ليلة الزفاف في اللحظة الأخيرة، جلست مع مدام "ماري" لتسمع القصة بعيدًا عن آذان الناس.

لم يلحظ أحد شيئًا وسط هذه الزحام الشديد، وانشغل الحضور بقيام "غريب" بحمل عروسته بين يديه، يصعد بها درجات السلم نحو شقته، كانت العروس تضحك بنشوة، وتنظر نحوه بفرحة غامرة، انطلقت الزغاريد تحملهما فوق أوتار البهجة، وتنثر الفرح على أرواح الجميع، حتى غابا عن الأنظار، بعدها انسحب المهنئون إلى شؤونهم، وصعد العريس كي يقطف أحلامه العذراء من فوق ثغر الحبيبة، وعندما دخلا الغرفة، بدأ العرسان التحرر من الملابس الخارجية، وبعدها توقفت رجاء خجلاً، وطلبت من غريب

أن يدير وجهه حتى ترتدي ملابس النوم، فتوارى خلف الستارة حتى تنتهي من استبدال ملابسها، وأخذ يتلصص عليها دون أن تراه، وبمجرد أن خلعت ملابسها، وفتحت شنطتها المغلقة تخرج الملابس الشفافة، قفز نحوها على غرة، ولم يمهلها لارتداء أيّ منها، وغطس معها في بحار الحب الزلال، فذهبا يمرحان، ويرتشفان اللذة من أنهار العسل حتى الصباح.

أشرقت فوق ليلتهم أنوار النعيم، وهبطت آيات الحب تقطر الرحيق من أزهار الجنان، فذاب كلاهما في الآخر، حتى أرهقا المساء، فبعث النور أكاليل الفجر تمسح عنهما العناء، فناما فوق الأمل، مغروسين في بعضهما البعض، يلتحفان وسائد الهناء.

وفي نفس الوقت وبالطابق الأول ظلت "حميدة" طوال الليل تسمع قصة ابنها في رحلة السفر لأول مرة من مدام "ماري"، فكانت تبكي من هول ما لاقاه ولدها من شقاء، أدركت حجم المعاناة التي تكبدها ابنها، ومع نهاية الليلة، كانت قد عرفت كل أسراره، وأن "ماري" مازالت زوجته، ولم يطلقها "غريب" رسمياً، ولم تسع هي للطلاق منه لشدة حبها له، فشعرت بشدة الامتنان نحوها؛ لوفائها للحب من طرف واحد.

كانت "حميدة" تعيش هذه السويعات في قلق شديد؛ خوفًا من غضب"رجاء" عندما تعرف، فمن المؤكد أن هذا الخبر مزعج، أو صادم، وقد تترك المنزل، فبدلا من تتلقى الفتاة هدايا العروس في الصباح، سيقدم لها القدر زوجة آخرى لحبيبها، وابنًا من غيرها، هل تستطيع هذه الرقيقة أن تتحمل مثل هذا الخبر بعد سويعات من زفافها؟ راحت الأفكار المتضاربة تضرب رأس الأم، كل خوفها أن تطلب "رجاء" الطلاق، وتعود إلى منزل أبيها، عندئذ سوف تنهار سمعة ولدها، الجميع سوف ينظرون إلى "غريب" على أنه غشاش، لأنه لم يفصح عن زواجه من أجنبية قبل الزواج من "رجاء".

كانت "حميدة" تعلم جيدا أن "غريب" لن يقوى على فراق "رجاء" ولا يستطيع العيش بدونها إذا صممت على الانفصال، ولذا كادت رأسها أن تنفجر،

وكأن الدم يغلي في نفوخها، كانت بين الفنية والآخرى تذهب لتضع رأسها أسفل الماء البارد، ولكن الماء كان لا يطفئ النار المشتعلة بداخلها.

وقبيل العصر هبط العروسان إلى "حميدة" بالدور الأول ليطمئناها على مرور الليلة الأولي من الزواج بسلام، ودخلا غرفتها، فدُهش غريب عندما شاهد أمه تربط رأسها برباط مبلل بالماء، فهي لا تفعل ذلك إلا إذا كانت مريضة، ودرجة حرارتها عالية، ولكن عندما نظر على الجانب الآخر من الغرفة ووجد "ماري" أرتبك لبرهة، بعدها أدرك الموقف، وعندما جال ببصره على باقي المقاعد لاحظ وجود طفلين يحملان معالم البراءة؛ دق قلبه دقات سريعة، بينما كانت رجاء تبتسم وتقبل أم العريس ثم الطفلين، ثم ماري، وتظنهم من المهنئين، ولكنها عندما أمعنت النظر في وجه "ماري" شعرت بقلق، كان السلام صامتا بدون كلام، حتى قطع الطفلان الصمت وجريا نحوه "غريب" يقبلانه وهو يقف صامتاً:

- هند: أنا هند يا أبي أنا من أنقذتني من الموت في عرض البحر.

- غريب: أنت هند تلك الصغيرة التي أرهقتني في الماء.

- هند: نعم أنا هي، وقد كبرت هكذا.

- بعد أن قبل هند وجد يده تمسح رأس "إبراهيم" وقد شعر بأن شيئًا ما

- يجذبه نحوه، فضمه برفق، وأخذا يقبله، ونظر في عينه قائلا:

- غريب: من أنت؟ يتابني أحساس بأني أعرفك.

- إبراهيم: وأنا ابنك.

- غريب: ابني؟

- إبراهيم: نعم يا أبي، أنا أبنك الذي لم تره منذ أن حملت منك أمي ماري.

أخذ غريب ينظر بدهشة نحو أمه ومـاري، ثم نظر إلى رجاء متوجسًا، فقد فهم الأمر في لحظة، وعرف أن الصغير هو فلزة كبده، ورغم أن مفاجأة

الأبوة أسعدته، إلا أن مشاعر الخوف كانت تسيطرة على تفكيره، ويخشى أن تتركه "رجاء"، ولذا كان مرتبكًا، وسقط على الأرض مغشيًا عليه، فانحنت عليه "ماري" تبكي وتصرخ وتعلن ندمها على الحضور، الكل يحاول إسعافه.

كان "غريب" يسمع كل ما يدور حوله من أحاديث دون القدرة على الرد، أو المشاركة في الكلام، كانت ماري تهزه حتى يعود للوعي:

ماري: "غريب" ماذا بك ؟ أرجوك أن تفيق، أنا أوفيت بعهدي معك، ولم أتصل بك منذ سفرك، ولم أخبرك بأمر حملي منك، حتى لا تتعلق بي، وتتفرغ لحبيبتك "رجاء" كنت خائفة عليك، ولا أريد أن أنغص حبك الطاهر نحوها، ولولا إلحاح ولدي أن يراك، لقتلت رغبتي الجامحة إلى رؤياك بالصبر، مهما كانت مرارته. (نهض "غريب" ببطء يتحدث بلسان ثقيل)

- غريب: هذا ابني، وهذه هند بنتي (يبكي ويفتح ذراعيه؛ ليضمهما نحو صدره، ثم ينظر نحو "رجاء") حبيبتي لم أكن أعلم بهذا .

- رجاء: (تهبط بجوارهما تبكي) هل لك ابن من امرأة غيري؟

- غريب: لم أكن أعلم؟ لقد قصصت عليكي كل قصتي بالماضي.

- حميدة: كان قدرًا يا ابنتي، ولا يمكن للمرأ أن يفر من قدره.

- ماري: لا تقلقي يا رجاء، سوف أنسحب من حياته.

- غريب: أهدئ لا تحزني يا رجاء.

- حميدة: لا ياولدي أرجوك لا تترك هذه المرأة الوفية تغادر مصر، فهي مازالت زوجتك، وفاؤها نحوك، وحبها الشديد لك لا يقابل إلّا بالوفاء يا ولدي.

- غريب: أعلم مدى نبلها، ولكني أحب رجاء يا أمي.

تحاول رجاء أن تنتصر على غيرتها، وتضغط على جرحها الذي ينزف من شدة الصدمة، تحولت بعيونها نحو "ماري" تتفحص تلك المرأة التي اقتنصت حبيبها بالأمس، تجولت بعيونها ترصد تفاصيل جسدها المشوق، وحسنها الطاغي، تلك المرأة هي التي غاص بين أرجائها حبيبها بالماضي، شعرت رغمًا عنها بالغيرة.

قرأت "ماري" ما يدور بخاطر غريمتها؛ فلم تقو على مواصلة النظر نحوها؛ وأخفضت رأسها خجلاً ممزوجًا بالألم.

تساقطت دموع "رجاء" وهي تنظر نحو "غريب" فقد كان العرق الغزير يتدفق من رأسه فوق جبينه، حتى اختلط العرق بالدموع، شعرت أنه مقسوماً بين حبه الصادق نحوها، وفكرة مقابلة الوفاء بالوفاء.

تحولت بعيونها تنظر نحو الصغير "إبراهيم"فوجدته يتعلق بأبيه كالغريق يرجو النجاة من الفراق، كان يتشبث بحضن أبيه؛ كي يعوضه سنوات الحرمان، أما الطفلة"هند" فقد كانت شديد الفرح برؤية من أنقذها من الموت، وتقبل رأسه، ويديه، أما الجدة"حميدة" كاد قلبها أن ينفطر من الفرح بحفيدها، والخوف من فكرة الفراق.

لمست"رجاء" في عيونهم جميعاً نظرات مزروعة بالألم، والخوف، والبراءة، والأمل.

أطبق الصمت المروع فوق أرجاء المكان، وغاصت الكلمات في الأراضين السبع، وبعد لحظات قصيرة وثقيلة، ورغم الوجع رسمت "رجاء"وجهها بابتسامة الرضا، أقنعت نفسها في دقائق أن تتقاسم أوقات السعادة مع غريمتها، فقررت أن تمنح الحياة للطفل البرئ، والطفلة اليتيمة، فلا يوجد أسمى من التضحية من أجل الطفولة، فقالت لـ"غريب" والدموع تنهمر على خديها:

رجاء: أنا أحبك بعمري يا "غريب"، وأحب من يحبك، ومن أجل ولدك، لا تترك هذه المرأة ترحل، فلتعش معنا، أختاً لي، وزوجة لك، نعم لا تتركها

يا غريب.

إبراهيم: بذلك سيكون لي أمين ماما "ماري" وماما "رجاء".

امتزجت فوق وجه ماري مشاعر الفرح بالتردد ، واقتربت تقبل "رجاء" كانت تشعر بدفء يسري في روحها لم تشعر به من قبل، لقد ذابت غيرة حواء القاتلة من حواء الآخرى، وتحول آدم من سببٍ للنزاع، إلى واحة للتوافق، كانت تلك اللحظات النادرة تموج بطوفان من المشاعر المتداخلة، ربما كانت تلك الحالة مستعصية على التفسير.

شعر "غريب" بالرضا، والعرفان بالفضل نحو حبيبته "رجاء"، وتأكد أنها لن تتركه، فبكرمها الزائد سيعم الحب بين الجميع.

طارت "حميدة" من الفرح، ونهضت من مكانها تطلق الزغاريد، ووراحت تمسك "رجاء" بيد، "ماري" بالآخري، وتضعهم في أيدي "غريب"، وتنحي تحتضن الطفلين بسعادة وحب وتقول:

حميدة: يا ولدي إذا عدلت بينهما في المعاملة سوف تمر الحياه بسلام، فالعدل هو ميزان الدنيا، وبه يسود الرضا بين الجميع، فقد حباك الله بالحب والوفاء، وتلك نعمة لا تجود بها الدنيا إلّا على الأبرار فوق هذه الأرض. (ثم تنظر للمرأتين) سنعيش معًا بالحب، وبالحب الحقيقي سوف تهون كل الصعاب.

تمت بحمد الله

القاهرة في ٢٠١٦/٠١/٢٨

السيرة الذاتية للمؤلف

صلاح شعير - من مواليد المنوفية: ١ / ٧ / ١٩٦٦ م.

عضو اتحاد كتاب مصر - دكتوراه في الاقتصاد ٢٠١٩ م.

أولا: الأعمال الأدبية للكبار:

١- الرواية العربية:

★ العنيدة والذئاب - دار مكتوب ٢٠١٢م/ دار يسطرون - طبعة منقحة ٢٠١٨م.

★ الظمأ والحنين - أدب الخيال العلمي دار الجندي ٢٠١٥م.

★ أحلام الملائكة - دار الجندي / ٢٠١٦م.

★ كفر الهوى رواية - دار يسطرون ٢٠١٨م. ٢٠١٩م.

٢- المسرح العربي: (٨ مسرحيات):

★ وطن للبيع مجموعة مسرحية ساخرة من ثلاث مسرحيات (وطن للبيع -عالم ستات - لصوص الرحمة) -مركز الحضارة العربية ٢٠١٤م.

★ مجموعة الساحرة والحكيم خمس مسرحيات : (أغصان العسل والصبار- القلب الجريح - بأمر نفسه - ليلة عاصفة مونودراما- الساحرة والحكيم مسرح الإذاعي) دار يسطرون ٢٠١٨م.

ثانيا : أدب الطفل:

١- مسرح الطفل(٦ مسرحيات):

★ حرامي الفيل مجموعة مسرحية للطفل (وعد الحر - حرامي الفيل- المفتري ندمان) دار الحضارة العربية ٢٠١٤.

★ تفاح وشطة ثلاث مسرحيات (مملكة الأسود - جزيرة الأرانب- تفاح

وشطة) دار يسطرون ٢٠١٨م.

٢- قصص الطفل:

★ أخلاق الفرسان - مجموعتان قصصيتان للطفل (عشرون قصة) - دار الجندي ٢٠١٦م.

★ القط والصياد : مجموعة قصصية للطفل(٥ قصص) الهيئة العامة للكتاب.

ثالثًا الكتب والأنشطة المتنوعة:

١ - الكتب المتخصصة:

★ مدينة ٦اكتوبر والاقتصاد المصري ٢٠١١م.

★ الطائفية و التقسيم - أخطار الصراع الطائفي بمصر والعالم العربي- الهيئة العامة للكتاب- ٢٠١٤م.

★ حلم التكامل الاقتصادي بالعالم العربي - دار الجندي- ٢٠١٥م.

★ الاقتصاد السياحي بالوطن العربي - (النشر نور - ألمانيا فبراير ٢٠١٧م - مركز الحضارة العربية القاهرة ٢٠١٩م)

★ بناء الاقتصاد العربي، مركز الحضارة العربية ٢٠١٩م .

★ النهوض الاقتصادي، وتنمية المدن المصرية الجديدة - مركز الحضارة العربية ٢٠١٩م .

★ عبقرية النكتة المصرية - النشر نور- ألمانيا - مارس ٢٠١٧ - مركز الحضارة العربية القاهرة ٢٠١٩م(الفنون والتراث)

٢ - الأبحاث العلمية المحكمة:

★ تنمية الصناعات التحويلية للحد من الورادات السلعية وزيادة الناتج المحلي بمصر، مجلة الدراسات والبحوث التجارية، كلية التجارة جامعة بنها ٢٠١٩م.

★ أثر تطبيق إستراتجيات التنمية على اقتصادات ببعض الدول، مجلة الدراسات

والبحوث التجارية، كلية التجارة جامعة بنها ٢٠١٩م.
★ محددات أدب الطفل، المجلة العلمية مركز بحوث وتوثقيق أدب الطفل، وزارة الثقافة المصرية ، ٢٠١٩م.

٣- الإنشطة الصحفية الحرة:

★ أصدر جريدة جماهير أكتوبر عامي ٢٠٠٩/٢٠١٠ وترأس مجلس إدارتها.
★ مدونة صلاح شعير فبراير ٢٠١٥م.
★ كتب الكثير من المقالات والدراسات بالعديد من الصحف الورقية والإلكترونية منذ ٢٠٠٣ م حتى تاريخه

رابعًا: تحت الطبع :

★ الحب بين أطلال الذكريات - رواية.
★ أدب الطفل وقيم البناء - دراسة نقدية.
★ عامية مصرية - خيار وفقوس.
★ الصناعة بالمدن الجديدة - لتجربة المصرية : ١٩٨١/٢٠١١م .
★ الأفلام الوثائقية: المقاتل الأسمر (مخطوطة عن أهم بطولات الجيش المصري).

خامسًا: الجوائز :

★ أفضل مقال عربي عن المرأة بالإقليم العربي - مركز الكوثر- تونس ٢٠١٥م.
★ جائزة القصة القصيرة - المركز الرابع وزارة القوي العاملة المصرية عام ٢٠١٦م.
★ قائمة أفضل عشرين نص مسرحي موجه للطفل للأعمال غير المنشورة - عن نص «مملكة الأسود» دولة الأمارات العربية -الهيئة العربية للمسرح ٢٠١٤ م.

الفهرس

1–القلق 4
2–الجذور العميقة 13
3– همس الحنين 18
4– صوت المعاناة 24
5– المحنة 31
6– النجاة 39
7– العشق والتخاطر 64
8 – الحقيقة الغائبة 55
9– ابن الأصول 64
10 – الضريح المقدس 69
11–الوهم الجديد 78
12– مولد الأمل 48
13ـ النبل والخسة 88
14ـ الرغبات الملتهبة 94
15– المفاجأة 99
16– الجريمة 103
17– الحصاد المر 107
18– اللعب على المكشوف 112
19– الزفاف 119